

(السنة الرابعة عشرة)

العدد الثالث

يوليه - سبتمبر ١٩٤٨

صحيفة دار العلوم

وتصدرها «جماعة دار العلوم»

كل ثلاثة أشهر

رئيس التحرير

محمد علي مصطفى

المدير

محمد نجيب صائم

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادي دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلي

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السياسي بيومي

وكيل كلية دار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوي

٢٠ قرشاً	_____	في القطر المصري
٣٠ قرشاً	_____	خارج القطر
٥ قروش	_____	من العدد

طبعة العلوم شارع الخليل ١٦٦



النقد في الأدب العربي

لرؤسنا الصباحي بيوتى

وكيل كلية داز العلوم

رابعاً - في العصر العباسي

٣ - العهد الثالث

من ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ

إذا صح أن يقال إن الشعر العربي قد بلغ في هذا العهد أوجه الذي مهد له أبو تمام وانتهى بالمتنبى ، فإنه لصحيح كذلك أن يقال ، وإن نقد الشعر قد بلغ أيضاً في هذا العصر المبلغ الذي به تكامل القول في الشعر المحدث وتحليله وتعليقه وبيان عيوبه وإظهار أخطائه ، على أيدي الأدباء الناقدين فيه ، أولئك الذين اعتمدوا أول ما اعتمدوا على الذوق السليم ، فأيدوا ما أيدوا ودحضوا ما انكروا ، بمنطق صحيح ورأى سديد ، يستمدون فيه من هذا الذوق ويأتسون بما ألفه القدماء ، وإذا صح أن كان الكلام عن الثلاثة الإسلاميين ، جرير والفرزدق والأخطل ، كلاماً في الشعر الإسلامى نفسه ، والكلام في الثلاثة الجاهليين زهير والنابغة والأعشى وعلى رأسهم رأس الشعراء جميعاً امرؤ القيس ، كلاماً في الشعر الجاهلى أيضاً . فإنه لأصح أن يكون الكلام في هؤلاء الثلاثة المحدثين ، أبى تمام والبحتري والمتنبى ، كلاماً في الشعر المحدث ، الذي بحث في أشعارهم أتم بحث وأقصاه . لأن قواؤهم قد انتظمت كل خصائص الشعر واشتملت على جميع مزاياه ، وقد

فاضت الموازنة بين بعضهم وبعض ، على أيدي نقاد هذا العصر من الأدباء أكثر مما فاضت بين الثلاثة الإسلاميين وبين الأربعة الجاهليين ، وكما وقعت الموازنة بين هؤلاء وأولئك ، وقعت بين ثلاثتنا المحدثين وبين أولئك وهؤلاء ، ومن ثم خصب النقد في هذا العهد واتسعت آفاقه ، بروح جديدة لنقاده ، لم تتكف على القديم عكوف اللغويين في العهد الأول ، ولم تسلم القيادة للمحدث كما فعل بعض العلماء والفلاسفة من نقاد العهد الثاني وبعض نقاد الأول ، وإنما أهدت في نقدها بأذواق الأدباء الشعراء ، وأنست بعض الأنس إلى بعض الأدباء من العلماء والفلاسفة غير مقيدة بالعلم وبالأولى بالفلسفة ، فليس للشعر عندهم حدود مرسومة بالألفاظ والمعاني ، كما قال ابن قتيبة ، وليست الفضائل النفسية عندهم بالتأثر بالترفضيل في الميادح وما إليها ، كما قال قدامة ، وإنما الشعر عندهم ، إصابة معنى وإدراك غرض ، في أسلوب عذب غير متكلف ، ومعان صحيحة سليمة لا استحالة فيها ولا فساد ، وهو مع هذا وذاك لا تأني صياغته التحلية بالبديع ، كما تشاء المحسنات ، ولا العمق في المعاني إلى الدرجة التي تحتاج إلى الغوض ؛ هذا هو الشعر عندهم ، وعليه يبني جماله ، وبقدر مخالفته لذلك تكون درجة تبحره ، مع إعطاء الأذواق وهي مختلفة حتما باختلاف النقاد حرية هذا الخلاف ، إلى درجة قد يدرك فيها الناقد الحسن أو القبح ولا يعرف كيف يعال لهذا أو ذاك ، مقدرين في هذه الناحية ما سبق به ابن سلام الجمحي في طبقاته ، من أن الشعر صناعة وثقافة ، وأنه في حاجة إلى معالجة ودرية كسائر الفنون والصناعات ، وأن الشيعيين من فرس وجارية وغيرهما ، قد تتجمع في كليهما كل علامات العتق وكل شرائط الحسن ، ولكن الذوق يفضل أحدهما على الآخر ، تفضيلا من شأنه أن ترتفع به عقيرة الناقد ، وأن يخالف بين ثمنيهما مخالفة تبلغ المائة وقد تصل الآلاف . وإذ قد اختص النقد بالأدباء في هذا العصر ، فقد ترك من اعتادوا الدخول فيه في العصرين قبله من غيرهما ، ميدانه لهم ، من علماء ولغويين ، هذا ابن خالويه خصيم المتنبئ وابن جنى ووليه ، لم يدخلوا حلبة النقد

كأدباء ناقدين ، وهذا ابن دريد الضاليع في الشعر وأيام الحرب ضلوعته في اللغة ، وابن الأنباري الحافظ للغة والراوى الدواوين ، ليس لهما في النقد أثر ظاهر ، وكذلك أضراهما من رجال اللغة وإن كانوا أدباء ، وقد كان من خلق هذا الميدان للنقد في هذا العهد للأدباء ، وتفزع الأدباء وحدهم لأجالة النقد فيه ، أن ظهرت به عدة شخصيات من كبار النقاد ، نبدوها بأبي الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني ، ونحتمها بفرسى رهانه أبي الحسن الجرجاني وأبي القاسم الأمدى ، مصرجين بينهما في إجمال على بعض الشخصيات الأخرى .

أولا - أبو الفرج الأصفهاني

هو أبو الفرج على بن الحسين ، ينتهى نسبه إلى مروان فامية ، كانت ولادته بأصفهان سنة ٢٨٤ ووفاته ببغداد سنة ٣٥٦ فهو قد عاش أكثر من سبعين سنة ، وكان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار وغيرها ، ما لم يحفظ مثله أحد ، على ما كان له من مشاركة حسنة لكثير من العلماء في كثير من العلوم ، وله مؤلفات كثيرة جدا ، كلها ينبىء عن غزارة أدبه وقوة شاعريته ، ولكن أرفاها وأكبرها وأجمعها ، كتاب الأغاني البالغ واحدا وعشرين جزءا ضخاما ، وهو الذى سنستقى منه مناقبه في النقد هنا :-

١ - كان أبو الفرج من أدق النقاد في تعرف خصائص الشاعر الذى يترجم له ، وفي الميزات التى توضح شخصيته ، وتحديد كيانه ، كما يظهر ذلك جليا في صدور التراجم ، واليك نموذجا منها قاله في صدر ترجمته لأبي العتاهية .

وقال الشعر فبيع فيه وتقدم ، ويقال ، أطع الناس بشار والسيد يعنى الحيرى ، وأبو العتاهية ، وما قدر أحد على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرتهم ، وكان غزير البحر ، لطيف المعاني ، سهل الألف باظ ، كثير الافتنان ، قليل التكلف ، إلا أنه كثير الساقط المرذول مع ذلك ، وأكثر شعره في الزهد والامثال ، وله أوزان ظريفة قاطيا ما لم يتقدمه إلاوائل فيها .

فأنت تراه في هذه الديباجة القصيرة ، قد تعرض للصياغة والفكرة في أكثر من ناحية لكتيبهما ، كما تعرض للاغراض والمناحي ، ولم يخلها من التعرض للعياب والمساقط ، وهكذا كان شأنه في سائر التصديرات .

٢ - عني عناية مشكورة بعقد الصلة بين الشاعر والشعراء الذين يقع بعضهم من بعض موقع الأساتذة من الطلاب ، يعنى الشعراء الذين تضمينهم مدرسة واحدة في المشارب كما نقول الآن ، حرصا منه على تبين خصائص كل مدرسة وزجائها من مدرسين وتلاميذ ، وأنت تلمح في الديباجة السابقة ، الجامعة التي ذكر من أجلها بشارا والسيد الحميري مع أبي العتاهية ، وهو كذلك يعقد صلة بين زهير وأوس قبله وبينه وبين الحطيئة بعده ، ويقول في سلم الخامس « وهو زاوية بشار بن برد وتلميذه وعنه أخذ ومن بحره اختلف وعلى مذهبه ونمطه قال الشعر » ، كما يقول في ترجمة العرجي مشيرا إلى اتحاده في المذهب الشعري مع عمر بن أبي ربيعة « كانت حبشية من مولدات مكة ظريفة » ، صارت إلى المدينة ، فلما أتاهم موت عمر بن أبي ربيعة ، اشتد جزعها وجملت تبكي وتقول ، من لمسكها وشعابها وأباطحها ونزهاها ، ووصف نساءها وحسنين وجمالهن ، ووصف ما فيها ، فقيل لها خفضي عليك فقد نشأ قى من ولد عثمان رضى الله عنه يأخذ مأخذه ويسلك مسلكه ، يعنون العرجي ، فقالت أنشدوني من شعره ، فأنشدها فسحت عينيها وضحكت وقالت ، الحمد لله الذي لم يضيع جرمه ، وهكذا .

٣ - تنبه إلى البيئية وأثرها في شعر الشاعر من زمانية ومكانية ، وإلى سيرة الشاعر وما تعرض له من صحبة ، وإلى مذهبه السياسي ورأيه الديني ، يذكر أثر ذلك كله في شعره ، انظر إليه يعرف بأبي دلالة تعريفا يتصل بتلك النواحي فيقول « وهو كوفي أسود مولد لبني أسد ، كان أبوه عبدا لرجل منهم يقال له فضافض فاعتقه ، وأدرك آخر أيام بني أمية ، ولم يكن له في أيامهم نباهة ، ونبج في أيام بني العباس وانقطع إلى أبن العباس وأبي جعفر المنصور والمهدي ، فكانوا يقدمونه ويصلونه ويستطيئون مجالسته ونواذره ،

ولم يصل إلى أحد من الشعراء ما وصل إلى أبي دلالة من المنصور خاصة ، وكان فاسد الدين ردى المذهب مرتكباً للخوارم مضيعاً للفروض مجاهراً بذلك ، وكان يعلم هذا منه ويعرف به فيتجافى عنه للطف محله ، وكان أول ما حفظ من شعره وأسئلت الجوائز له به ، قصيدة مدح بها أبا جعفر المنصور وذكر قتله أبا مسلم ، هي التي يقول فيها :

أبا مسلم خوفتى القتل فانتحى عليك بما خوفتى الأسد الورد

أبا مسلم ما غير الله نعمة على عبده حتى يغيرها الصبد

أنشدها المنصور في حفل من الناس فقال له احتكم قال عشرة آلاف

درهم ، فأمر له بها ، فلما خلا به قال له إيه أما والله لو تعديتها لقتلتك »

٤ - كان كفا بتحليل الشعر تحليلاً يذكر من أجله أخبار السائقين ،

من شعراء ونقاد ذوقيين ، ويقف به على ما يراه الحسن وما يراه القبيح ،

وإليك في هذا مثلاً رأيتاه ذا سعة من أمثال ، ذكر عن سائب راوية كثيرة

أنه دخل عليه ومعه عمر بن أبي ربيعة والأحوص ونصيب في خيمته ، قال

فوجدناه جالسا على جلد كبش ، فوالله ما أوسع للقرشى ، فلما تحدثوا ملياً

وأفاضوا في ذكر الشعراء أقبل على عمر فقال له أنت تنعت المرأة قشيب

بها ثم تدعها وتنسب بنفسك ، أخبرني يا هذا عن قولك :

قالت تصدى له ليعرفنا ثم اغمز به يا أخت في خفر

قالت لها قد غمزته فأنى ثم اسبطرت تشتد في أثرى

تقولها والدموع تسببها لنفسدن الطواف في عمر

أتراك لو وصفت بهذا هرة أهلك ، ألم تكن قد قبحت وأسأت وقلت

الهمجر ، إنما توصف الحرة بالحياء والآباء والاتواء واليخل والامتاع ، كما

قال هذا ، وأشار إلى الأحوص

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم مادرت حيث أدر

وما كنت زوارا ولكن ذا الهوى إذا لم يزر لابد أنه سيرور

لقد منعت معروفها أم جعفر وإنما إلى معروفها لفتقير

قال فدخلت الأحوص أبهة وعرفت الخيلاء فيه ، فلما استبان ذلك منه قال ، أبطل آخرك أولك ، أخبرني عن قولك .

فإن تصلى أصلك وإن تبنى بصرمك بعد وصلك لا أبالي ولا ألقى كن إن سيم صرما تعرض كي يرد إلى الوصال أما والله لو كنت خلا لباليت ولو كسرت أنفك ، ألا قلت كما قال هذا الأسود وأشار إلى نصيب

بزنيب أليم قبل أن يرجل الركب وقل إن تملينا فمالك القلب قال فانكر الأحوص ودخلت النصيب أبهة ، فلما نظر أن الكبرياء قد دخلته قال له ، وأنت يابن السوداء أخبرني عن قولك :

أهم بدعه ماجحيت فإن أمت فوا كبدى من ذا مهم بها بعدى أهك من يفعل بها بعدك قالها ولا يكنى ، فقال نصيب استوت الفرقة ، وهي لجة واستواؤها انقضاؤها ، وللحديث بقية طويلة ص ١٧ - ١١

٥- وقد تعرض للسركات الشعرية لمأما ، ولكن باسم الأخذ لا السرقة ، ومن شواهد ذلك قوله وقد ذكر عينية على بن جبلة الطويلة المشهورة ، وهي من نادر الشعر وبديعه ، في رثاء حميد الطوسي « إنما ذكرت هذه القصيدة على طولها لجودتها وكثرة تادرتها ، وقد أخذ الباحثى أكثر معانيها فسلبخه وجعله في قصيدتيه اللتين رثي بهما أبا سعيد الثغرى « انظر إلى العلياء كيف تضام » و « بأى أسى تثنى الدموع الهوامل » ، وقد أخذ الطائى أيضا بعض معانيها ، ولولا كراهة الأطلالة لشرحت المواضع المأخوذة ، وإذا تأمل ذلك منتقد بصير عرفه ، هذا وعينية ابن جبلة هذه هي التى يقول فى مطلعها :

اللدهر تبكى أم على الدهر تجزع وما صاحب الأيام إلا مفتح
ولو سملت عنك الأسى كان فى الأسى عزاء معز بلبيب ومقنم

ثانيا - ابن العميد وآخرين

ومن التقاد بعد أن الفرج ، أبو الفضل بن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ

وهو العالم الفيلسوف والأديب الشاعر ، أنشد الصحاح بن عباد بحضرة يوماً ، قصيدة أن تمام التي منها هذا البيت :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى وإذا مالمته لمته . وحدى

فسأله ألا تجد في هذا البيت عيباً ، فقال بلى ضعف الطبان بين المدح

واللوم ، قال لا ، إنما عيبه في عدم سلامة الحروف من الثقل ، وفي التكرار

في أمدحه مع الجمع بين الحاء والهاء مرتين وهما من حروف الخاق ، وذلك

مرذول خارج عن حد الاعتدال ، وإن العميد في نظر الصحاح خير النقاد ،

ولعله يعنى في هذه الناحية ناحية الانسجام بين الحروف في الكلمة والكلمات

في التركيب ، مع ناحية أخرى هي ناحية الانسجام أيضاً ، ولكن بين المعاني

والوزن والقافية ، يؤيد هذا من الصحاح قوله حيث يقول « لم أجد فيمن

صحبت من يفهم الشعر كما يفهمه ابن العميد ، فإنه يتجاوز نقد الأبيات إلى

نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخير القافية

والورن ، ، وقال عن ابن العميد أيضاً ، سمعته أيدى الله يقول . إن أكثر

الشعراء لا يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبدأ النسيج ، لأن حق

الشاعر ، أن يتأمل الغرض الذي قصده والمعنى الذى اعتمده ، وينظر في أى

الأوزان يكون أحسن استمرارا ومع أى القوافي يحصل أحمل اطراد .

ومنهم الصحاح بن عباد المذكور مؤلف الرسالة المسماة « الكشف عن

مساوى المتنبي ، وهو ظاهر التعصب عليه فيها ، إذ وقع أكثر ما وقع منه

عن هوى وغرض . وما جاء فيها عن غير الهوى والغرض لم يكن فيه من

جديد ، وإنما هو مما شاع على ألسنة المحدثين من ذكر أشياء من شعر المتنبي

تمثل التعقيد والركاكة والاستكراه والخموض وغيرها ، مما وقع فيه المتنبي ،

وإن كان بالنظر إلى مجموع شعره يعد من الهنات الهينات .

ومنهم أبو على الحاتمي الذى ألف رسالة سماها « الموضحة في مساوى

المتنبي ، وأخرى فيه أيضاً عن حكمه وما وافق فيها أرسطو طاليس بقصده

الغرض منه كذلك .

ثم منهم أبو الحسن بن لنكك ، وقد ولح بشاب المتنبى كصاحبيه
المذكورين .

ثالثاً - الأمدى والجرجاني

الأمدى هو أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدى ، كان من أهل
البصرة وفيها تلقى النحو واللغة عن الأخفش الأصغر علي بن سليمان ، ومن
بعده علي الزجاج وابن دريد ، وقد نشأ محباً للادب مولعاً بالشعر ونقده ،
ومن أهم كتبه في ذلك كتاب المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء ، وكتاب
الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، وهو منسوب إلى أمد من أشهر مدن الجزيرة
على الفرات وكانت وفاته سنة ٣٧٠

والجرجاني هو أبو الحسن علي بن عبد العزيز قاضي الري أيام صاحب
بن عباد ، وكان أديباً مبرزاً وشاعراً محمداً وكاتباً قديراً ، تلمذ عليه كثير ،
أهمهم عبد القاهر الجرجاني الذي سنتكلم عنه بعد ، وهو صاحب كتب كثيرة
منها كتاب تهذيب التاريخ وقد نقل عنه الثعالبي في التيممة وكتاب الوساطة
بين المتنبى وخصومه الذي ألفه عقب تحامل صاحب في رسالته السابقة على
المتنبى ، وقد عرف بالتطواف في الأقطار الإسلامية إذ ذلك ، وكانت وفاته
سنة ٣٩٢ .

والذي يعيننا من الأمدى والجرجاني ، هو التعرض لنقدهما ، الأول في
كتابه الموازنة والثاني في كتابه الوساطة ، على أنهما عليهما الأدب النقدي في
العهد الذي نحن فيه .

١ - الأمدى في كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري :

بدأ الأمدى كتابه هذا بقوله « هذا ما حثت - أدام الله لك العز والتأييد
والتوفيق والتسديد - على تقديمه من الموازنة بين أبي تمام بن أوس الطائي
وأبي عبادة الوليد بن عبيد الله البحتري في شعرهما ، وقد رسمت من ذلك

ما أرجو أن يكون الله عز وجل قد وهب فيه السلامة ، وأحسن في اعتماد الحق وتجنب الهوى المعونة منه برحمته .

وبعد أن ذكر إجمالاً رأى من يفضلون أبا تمام ، ورأى من يفضلون البحرى ، ورأى من يسرون بينهما ، أعلن عن رأيه فقال « ولست أحب أن أطلق القول بأيهما أشعر عندي ، لتباين الناس في العلم واختلاف مذاهبهم في الشعر ، ولا أرى لأحد أن يفعل ذلك فيستهدى لذي أحد الفريقين ، لأن الناس لم يتفقوا على أي الأربعة أشعر ، في امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى ، ولا في جرير والمرزوق والأجطل ، ولا في بشار ومروان ، ولا في أبي نواس وأبي العتاهية ومسلم ، لاختلاف آراء الناس في الشعر وتباين مذاهبهم فيه ، فإن كنت ، أدام الله سلامتكم - بمن يفضل سهل الكلام وقريبه ، ويؤثر صفة السبك وحسن العبارة ، وحلو اللفظ وكثرة المياء والروثق ، فالبحرئ أشعر عندك ضرورة ، وإن كنت تميل إلى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ، ولا تلوحي على غير ذلك ، فأبي تمام أشعر عندك لاحتائه ، فأما أنا فليست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ، ولست أقرن بين قصيدتين من شعرهما ، إذا اتفقتا في الوزن والقافية ، وإعراب القافية ، وبين معنى ومعنى ، فأقول ، أيهما أشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ، ثم أحكم أنت حينئذ على جملة ما لكل واحد منهما إذا أحطت علماً بالجيد والردىء ، وأنا أبتدىء بما سمعته من احتجاج كل فرقة من أصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الأخرى عند تخصصهم ، في تفضيل أحدهما على الآخر ، وما ينعاها بعض على بعض ، لتأمل ذلك ، وترداد بصيرة وقوة في حكمك إن شئت أن نحكم ، وفي اعتقادك فيما لملك . قال صاحب أبي تمام « وقال صاحب البحرئ « حتى أنهى في ذلك أحد عشر احتجاجاً مزدوجاً ، لم تترك فيما قيل لسلك من الشاعرين وعليه شيئاً ، إذ استخرقت نحو العشرين صحيفة من الكتاب ، وبهذا أخذ بين ما سيحرضني له .

في الكتاب من موضوعات فقال د تم احتجاج الخصم من محمد الله ،
 وأنا أبتدىء بذكر مساوي هذين الشاعرين لأختم بذكر محاسنهما ، فأذكر
 طرفاً من سرقات أبي تمام وإحالاته وغلطه وساقط شعره ، وآخر من مساوي
 البيهقي في أخذ ما أخذه من معاني أبي تمام وغيره ، وغير ذلك من غلظه في
 بعض معانيه وألفاظه ، وأوازن من شعريهما ، بين قصيدتين إذا انفقتا في
 الوزن والقافية وإعراب القافية ، وبين معنى ومعنى ، فإن محاسنهما تظهر في
 تضاعيف ذلك وتتكشف ، ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منها فحوز من
 معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه ، وأفرد بابا لما وقع في شعريهما من التشبيه
 وبابا للأمثال أختم بهما الرسالة ، وأتبع ذلك بالاختيار المجرد من شعريهما
 وأجمله مؤلفاً على حروف المعجم ، ليقرب متناوله ويسهل حفظه وتقع
 الأحاطة به إن شاء الله تعالى ،

هذا هو الفهرس الذي رسمه لنفسه كي يسير عليه ولا يكن مما يؤسف له ،
 أن طابعتي الكتاب للمرة الأولى في مصر وقفوا به في الطبع ، مع زعمهم التمام ،
 عند نهاية الموازنة ، فأما باب انفرد كلا الشاعرين بما انفرد به من معان دون
 صاحبه ، وباب ما وقع في شعريهما من التشبيه ، وباب ما وقع فيه من أمثال ،
 ثم باب الاختيار المجرد من شعريهما مؤلفاً على حروف المعجم ، فلم تتناوله
 تلك الطبعة . وما يؤسف له أكثر أن الذين تعرضوا لطبعه المرة
 الثانية دون هؤلاء تحت إشراف أحد الأساتذة ، وقفوا عند هذا الحد
 أيضاً ، مع أن الكتاب مخطوط كاملاً في دار الكتب ، ومن أصح مخطوطاته
 وأوضحها ، نسخة في مكتبة المغفور له أحمد تيمور باشا . وعلى ذلك يكون
 كلام الأمدى في الجزء المطبوع ، قصرنا على البابين الأولين ، وهما باب
 السرقات والإحالات في المعاني والغلط في الألفاظ ، وباب الموازونات بين
 القصيدتين المتفتحتين وزنا وقافية ، وبين المعنيين المتحدتين ، على أن الأمدى حين
 انتهى إلى القول في الموازونات ، قصره عليها بين المعنيين المتفقين ، وعذلت

عن الموازنة بين القصيدتين المتحدتين وزنا وقافية ، لأن الاتفاق في المعنى هو الأساس الصالح للمقارنة ، وهذا قوله في ذلك ، وقد انتهت الآن إلى الموازنة ، وكان من الرأي أن أوازن بين البيتين أو القطعتين ، إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية ، ولكن هذا لا يكاد يتفق مع اتفاق المعاني ، التي إليها المقصد وهي المرعى والغرض ، وبالله أستعين على مجاهدة النفس ، ومخالفة الهوى ، وترك التحامل ، فانه جل اسمه حسبي ونعم الوكيل . وعلى هذا يكون ما تعرض له راجعاً إلى السرقة ، وإلى الأحوال في المعاني للخلط في الألفاظ ، فإلى الرذل من ألفاظه والقيح من استعاراته ، والمستكره المتحقد من نسجه ونظمه ثم إلى الموازنة بين المخنيين المتفقيين ، مما تعرض له الأمدى في الجزء المطبوع ، وهو كغليل أن يرينا عظيم جهده وبالغ قدره في النقد .

السرقة :

قال الأمدى في التصدير لسرقات أبي تمام : كان أبو تمام مشتهراً بالشعر شغوفاً به ، مشغولاً مدة عمره بتخميره ودراسته ، وله كتب اختيارات فيه مشهورة معروفة ، وبعد أن عُد من هذه الاختيارات ستة أجدها المعروف باسم ديوان الحماسة وهو أشهرها وليس أكبرها قال : وهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر ، وأنه أشغل به وجعله وكده ، واقتصر من كل الأدب والعلوم عليه ، فانه ما من شيء كبير من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا محدث - إلى عهد - إلا قرأه واطلع عليه ، ولهذا أقول إن الذي سخرني من سرقاته أكثر مما قام منها على كثرته ، وأنا أذكر ما وقع إلى في كتب الناس من سرقاته ، وما استنبطته أنا منها واستخرجته ، فان ظهرت بعد ذلك منها على شيء ألحقته بها إن شاء الله ، ثم أخذت عقب هذا يعدد سرقاته من معاني الجاهلين والأسلاميين والمحدثين وأحياناً بنفس ألفاظهم أو بعضها حتى جاوز المائتين ؛ وهدي أمثلة ثلاثة متنوعة على ما سبق بما ذكر .

قال النابغة يصف يوم الحرب :

تبدو كواكبه والشمس طالعة لا النور نور ولا الأظلام إظلام
أخذه الطأ فقال وذكر ضوء النهار وظلمة الدخان في الحريق الذى وصفه
ضوء من النار والظلماء جا كفة وظلمة من دخان فى ضحى شحوب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت والشمس واجبة من ذا ولم تجب
وقال جرير فى العميون :

يصر عن ذا اللب حتى لا حراك له وهن أضعف خلق الله إنسانا
فأخذه أبو تمام فجعله فى الخمر فقال :

وضعيفة فاذا أصابت فرصة قتلت ، كذلك قدرة الضعفاء
وقال أبو العتاهية :

وإننا إذا ما تركنا السؤا ل فيه فلم نبده يبتدينا
وإن نحن لم نبع معزوفه فمعزوفه أبدا يبتغينا
وقال مسلم بن الوليد فى معنى بيت أبى العتاهية الأول :

أخ لى يعطينى إذا ما سألته ولو لم أعرض ببالسؤال ابتدانيا
أخذ أبو تمام معنى هذا البيت ومعنى بيت أبى العتاهية الأول فقال :
ورأيتى فسألت نفسك سديها لى ثم جدت وما انظرت سؤالى
أو لعله أخذه من قول منصور النمرى :

رأيت المصطفى هرون يعطى عطاء ليس ينتظر السؤالا
وأجود من هذا كله قولى سلم الخاسر :

أعطاك قبل سؤاله فكفأك مكروه السؤال

وأخذ أبو تمام معنى بيت أبى العتاهية الثانى فقال :

كالغيث إن جئته وافاك ريقه وإن تحملت عنه كان فى الطلب
وبعد أن أكمل ذلك العدد من السرقات وزاد ، قال «وقد سمعت أبا على
محمد بن العلاء السجستاني يقول عن أبى تمام وسرقاته ، إنه ليس له معنى
انفرد به فاختبره إلا ثلاثة معان ، وهى قوله :

ثأبي على التصريد إلا نائلا إلا يكن ماء قراحا يمزق
نورا كما استكرهت عاب نفحة من فأرة المسك التي لم تفتق
وقوله

بني مالك قد نهبت حامل الثرى قبور لكم مستشرفات المعالم
رواقد قيد المكف من متناول وفيها علا لا يرتقى بالسلام
وقوله

وإذا أراد الله نشر فضيلة طوبت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
قال الآمدي ، ولست أرى الأمر على ما ذكره أبو علي ، بل أرى أن
له على كثرة ماأخذه من أشعار الناس ومعانيهم ، مخترعات كثيرة وبدائع
مشهورة ، وأنا أذكرها عند ذكر محاسنه إن شاء الله تعالى ، ومع هذا فلم أر
المنحرفين عن هذا الرجل يجعلون السرقات من كبير عيوبه لأنه باب ماتصرى
منه أحد من الشعراء إلا القليل ، بل الذي وجدتهم ينعونه عليه ، كثرة
غلطه وإحالاته في المعاني والألفاظ .

الغلط والأطالة

وقال في التصدير لهذا الذي ينعاه عليه المنحرفون عنه من كثرة غلطه
وإحالاته في المعاني والألفاظ ، « وتأملت الأسباب التي أدته إلى ذلك فإذا
هي ما رواه أبو عبد الله محمد بن داود الجراح ، عن محمد بن القاسم بن مبرويه
عن حذيفة بن أحمد ، أن أبا تمام يريد البديع فيخرج إلى المحال ، وهذا نحو
ما قاله أبو العباس عبد الله بن المعتز في كتابه الذي ذكر فيه البديع ، وكذلك
ما رواه محمد بن داود عن محمد بن القاسم بن مبرويه عن أبيه ، من أن أول
من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، وأن أبا تمام تبعه فسلك في البديع مذهبه
فتحير فيه ، كأنهم يريدون إسرافه في طلب الطباق والتجنيس والاستعارات
وتوشيح شعره بها ، حتى صار كثير مما أتى به من المعاني لا يعرف ولا يعلم
مخرضه فيها ، إلا مع السكد والفسكر وطول التأمل ، ومنه ما لا يعرف معناه
إلا بالظن والحس ، إلى أن قال « وأنا الآن أذكر ما غلط فيه أبو تمام من

المعاني والألفاظ مما أخذته من أفواه الرجال وأهل العلم بالشعر عند المفاوضة والمذاكرة ، وما استخرجته أنا من ذلك واستنبطته ، بعد أن أسقطت منه كل ما احتمل التأويل ودخل تحت المجاز ولاحت له أدنى علة ،

قال ذلك ثم ساق لما قال أكثر من ثلاثين مثلاً سودى في التطبيق على بعضها أكثر من سبع صفحات ووقف في بعضها عند الصفحة أو أقل منها ، وهالك ثلاثة أمثلة لهذا النوع الذي أقل فيه أو توسط .

قال ، ومن خطئه في المدح قوله :

سأحمد نصراً ما لحيت وإننى لأعلم أن قد جل نصر عن الحمد .
فانه رفع الممدوح عن الحمد الذي ندب الله عباده إليه بأن يذكره به وينسبوه إليه ، وافتتح فرقانه في أول سورة يذكره وحث عليه ، وللعرب في ذكر الحمد ما هو كثير في كلامها وأشعارها ، ما فيهم من رفع أحداً عن أن يحمده ، ولا من استقل الحمد للمدح .
قال زهير بن أبي سلمى .

منصرف للمجد مقترف للرزء نهاض إلى الذكر

أى حيثما رأى خلة تسكبه الحمد التمسها وطلبها ، وقال زهير أيضاً

أليس بفياض يده غمامة شمال اليتامى في السنين محمداً

فقوله محمداً أى يحمده كثيراً ، وقال الأعمش

ولكن على الحمد إنفاقه وقد يشتره بأعلى الثمن

وقال أيضاً

إليك أبيت اللعن كان كلالها إلى الماجد الفرع الجواد المحمد

فوعفه بأن جعله محمداً أى يحمده كثيراً ، وقال آخر « يعنى الخطيئة »

تزورقتى يعطى على الحمد ماله ومن يعطى أثمان المحامد يحمده

فهذه هى الطريقة المعروفة فى كلام العرب . ولو قال الطائى ، لوجل أحد عن المدح لجلت عنه ، كان أعذر له . كما قال البحترى :

لوجل خفى قط عن أكرومة تبني جللت عن الندى والباس

أى كنت تجل لعلو شأنك عن أن يقال سخى أو شجاع ، إذ كان هذان الوصفان قد يوصف بهما من هودونك ، وقال البحترى أيضاً :
والحمد أنفس ما تعوضه امرؤ رزىء التلاد إن المرزأ عوضاً
فأما قول البحترى :

كيف تثنى على ابن يوسف لا كيف ، سرى مجده فعاب الثناء
فعبه الثناء ، إنما معناه ، عظم أن يدركه ويبلغ حده ، ألا تراه قال
« كيف تثنى على ابن يوسف لا كيف » أى لا طريق إلى كيف الثناء الذى
يستحقه ويليق به ، ثم قال « سرى مجده فعاب الثناء » قطعاً من الكلام الأول :
ومن خطئه قوله :

وأرى الأمور المشكلات تمزقت ظلماها عن رأيك المتوقد
فبسطت أزهرها بوجه أزهر وقبضت أربدها بوجه أربد
فقال « الأمور المشكلات » وجعل لها ظلمات ، فكيف يقول فبسطت
أزهرها ، والزهر هى النيرات ، والمشكلات لا يكون شىء فيها نيراً ، وكأنه
يريد أن الأمور المشككة منها جيد قد أشكل الطريق اليه ، ومنها ردىء قد
جهلت أيضاً حاله ، فهى كلها مظلمة ، فيمزق ظلماها برأيه ويكشف عن الجيد
منها ويبسطه أى يستعمله ، ويكشف عن رديها ويقبضه أن يكلفه ويطره ،
راسكن ما كان ينبغى له أن يقول بوجه أزهر وبوجه أربد ، لأنه لا ضوء
ها هنا للوجه ولا تأثير ، فان الصنع إنما هو للرأى وللخقل ، فاذا رأى ذوالرأى
أن يفتح أمراً مغلقاً واستبان منه الأشياء المظلمة وانفتحت المغلقة ، أو رأى
أن يخلق أمراً مفتوحاً إذا كان الصواب موجباً ذاك عنده كان ذلك له ،
فالرأى على الأحوال كلها أزهر مسفر ، والوجه على الأحوال كلها أبيض ،
وليس يريد أبيض فى لونه ، والعاجز إذا ورد عليه الأمر يبهظه ، تبينت
الكتابة فى وجهه ، والله در منصور النمرى حيث يقول :

يرى ساكن الأوصال باسط وجهه يريك الهوينى والأمر تطير
فقال « ساكن الأوصال باسط وجهه » فدل على قلة اكترائه بالأمر

التي ترد عليه ، وقول أبي تمام « بوجه أربد » لا معنى له لأنه من صفات الغضبان أو المستكثب من أمر ورد عليه وهو عندى في ذلك غاطل وفي ذلك مسيء .

ومن خطئه قوله :

ومشهد بين حكم الذل منقطع صاليه أو بحبال الموت متصل
جلايت والموت مبد حر صفحته وقد تفرعن في أفعاله الأجل

قوله « بين حكم الذل » لو كان حكم الذل أشياء متفرقة لصحت فيها بين ، غير أن حكم الذل والذل بمنزلة واحدة ، وكذلك حكم العز والعز ، فكما لا يقال بين العز فكذلك لا يقال بين حكم العز إلا أن يقال وكذا ، لأن بين إنما هي وسط بين شيئين ، فان قيل ، حكم الذل مشتمل على مشهد الحرب ومن يصلها ، فكأنه ذهب بقوله بين إلى معنى وسط ، أى مشهد وسط حكم الذل ، قيل وسط لا يحل محل بين ، وبين لا يحل محل وسط ، لأنك تقول ، البر وسط الدار ولا تقول للبر بين الدار ، وتقول المال بيننا نصفان ولا تقول المال وسطنا نصفان ، والمعنى الذى بنى أبو تمام البيت عليه ، سياق لفظه أن يقول ومشهد بين حكم الذل وحكم العز ، أى ومشهد بين الذل والعز ، محجم من يصلاه وهو الذليل أو مقدم وهو العزيز ، جلايته وكشفته ، يعنى الممدوح ، فحذف أحد القسمين الذى لا يصلح بين إلا به مع القسم الآخر ، وجعل قوله منقطع فى موضع محجم ، ومتصل فى موضع مقدم ، وليس هذا من مواضع متصل ولا منقطع ، وقد أغراه الله بوضع الألفاظ فى غير مواضعها ، من أجل الطباق والتجنيس اللذين بهما فسد شعره وشعر كل من اقتدى به ، وقوله « وقد تفرعن فى أفعاله الأجل » معنى فى غاية الركاكة والسخافة ، وهو من ألفاظ العامة ، وما زال الناس يحيوناه ويقولون اشتق للأجل الذى هو مطلق على كل النفوس فعلا من اسم فرعون ، وقد أتى الأجل على نفس فرعون ، وعلى نفس كل فرعون كان فى الدنيا .

الردل والقيح من الألفاظ والاستعارات :-

وقال في التصدير للردل من ألفاظه والقيح من استعاراته ، والمستكره المتعقد من نسجه ونظمه ، قد ذكرت في الجزء الأول من كتاب الموازنة سرقات أبي تمام ، وذكرت في الثاني إحالته في المعاني لخطئه في الألفاظ ، وأنا أذكر في هذا الجزء الثالث ، الردل من ألفاظه والقيح من استعاراته والمستكره المتعقد من نسجه ونظمه ، على ما رأيت في أشعار المتأخرين ، يتداكرونه وينخونه عليه ويعيونه به ، وعلى أنى وجدت لبعض ذلك نظائر في أشعار المتقدمين فعلت أنه بذلك اغتر وعليه في العذر اعتمد ، طلبنا منه للاغراق والإبداع ، وميلا إلى وحشي المعاني والألفاظ ، وإنما كان ينذر من هذه الأنواع المستكرهه على لسان الشاعر المحسن ، البيت أو البيتان يتجاوز له عن ذلك ، لأن الأعرابي لا يقول إلا عن قريحته ولا يعصم إلا بخاطره ولا يستقي إلا من قلبه ، وأما المتأخر الذي يطبع على قوالب ، ويحدو على أمثلة ، ويتعلم الشعر تعليما ، ويأخذه تلقنا ، فنشأنه أن يتعجب المذموم ولا يتبع من تقدمه وإلا فيما استحسن منهم واستجد لهم واختير من كلامهم ، أو في المتوسط السالم إذا لم يقدر على الجيد البسارع ، ولا يوقع الاحتطاب والاستكثار مما جاء منهم نادراً ومن معانيهم شاذاً ، ويجعله حجة له وعذراً ، فإن الشاعر قد يعاب أشد العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره ، وبالابداع جميع فنونه ، لأن مجاهدة الطبع ومغالبة القريحة ، مخرجة سهل التأليف إلى سوء التكلف وشدة التحمل ، كما عيب صالح بن عبد القدوس وغيره ممن سلك هذه الطريقة حتى سقط شعره ، لأن لكل شيء حداً إذا تجاوزه المتجاوز سمى مفراطاً ، وما وقع الإفراط في شيء إلا شانه وأعاد إلى الفساد صحته ، وإلى القبح حسنه وبهائه ، فكيف إذا تتبع الشاعر مالا طائل فيه من لفظة شنيعة لم تقدم ، أو معنى وحشي ، فجعله إماماً واستكثراً من أشباهه ووشح شعره بنظائره ، إن هذا لعين الخطأ وغاية في سوء الاختيار ،

قال ذلك ثم أخذ يسوق أمثلة لكل تلك الأنواع ، ويعلق عليها مطيلاً
أو مقصراً ، وهذا بعض ماساق ،
قال عن قببح الاستعارة، فن مرذول ألفاظه وقبيح استعاراته قوله :
يا دهر قوم أخدمك فقد أضججت هذا الإنام من خرقك
فجعل كما ترى مع غثاثة الألفاظ للدهر أخدمين ، وأى ضرورة دعته
اليهما ، وكان يمكنه أن يقول قوم من اعوجاجك أو من تعرج صنعك أى
أحسن بنا الصنيع ، لأن الاخرق هو الذى لا يحسن العمل وضده الصنع ،
وهذه استعارة فى غاية القباحة والهجانة والبعد من الصواب ، وإنما استعارت
العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه فى بعض أحواله ،
أو كان سبباً من أسبابه ، فتسكون اللفظة المستعارة حينئذ لا ثقة بالشىء الذى
استعيرت له وملائمة لمعناه ، وقد أوصل الامثلة فى هذا إلى الثلاثين .
وقال عن قببح التجنيس ، ورأى أبو تمام المجانس من اللفظ شرفاً فى
أشعار الإوائل ، وهو ما اشتق بعضه من بعض ، وكان يأتى منه فى القصيدة ،
البيت الواحد والبيتان ، على حسب ما يتفق للشاعر ويحضر فى خاطره ، فبنى
أكثر شعره عليه ، فلو كان قلل منه واقتصر على مثل قوله « يارب لور ربوا
على ابن هموم » وقوله « أرامة كنت مألّف كل ريم » وقوله « يا بعد غاية
دمع العين إن بعدوا ؛ وأشباه هذا من الالفاظ المتجانسة المستعذبة اللائقة
بالمعنى ، لكان قد أتى بالعرض وتخلص من الهجنة والعيب ، فاما أن يقول :
قرت بقران عين الدين وانشرت بالأشترين عيون الشرك فاصطليها
فانشتار عيون الشرك فى غاية الغثاثة والقبحاثة ، وأيضاً فان انشتار
العين ليس بموجب للاصطلام ، وبعد أن ذكر من هذا النوع خمسة أبيات
قال ، وقد عابه ابن المعتز ببعض هذه الأبيات فى كتابه البديع لقبح التجنيس .
وقال عن مستكره الطباق ، ورأى الطباق فى أشعار العرب فأكثر وتكلف
ولو اقتصر على ما اتفق له فى هذا الفن من حلول اللفظ وصحيح المعنى كقوله
« نثرت فريد مدامع لم تنظم ، وتجنّب مثل قوله :

قد لان أكثر ما تريد وبعضه خشن وأنى بالنجاح لوائح
ونحوه مما يكدر إن ذكرته لسقط أكثر ما عيب عليه فيه
وقال عن سوء النظم ، وهذا باب في سوء نظمه وتحقيد ألفاظ نسجه
ووحشيتها ، وأنا أذكر هنا ما إليه قصدت من سائر ما في شعر أبنى تمام من هذه
الأنواع وهي كثيرة ، وأورد من كل نوع قليلا يستدل به على الكثير ، فأقول ،
فن معاملة أبنى تمام وهي مداخلة الكلام ببعضه في بعض وركوب
بعضه لبعض قوله

خان الصفاء أخ خان الزمان أخا عنه فلم يتخون جسمه السمك
فانظر إلى أكثر ألفاظ هذا البيت وهي سبع كلمات آخرها قوله «عنه»
ما أشد تشبث بعضها ببعض وما أقيح ما اعتمده من إدخال ألفاظ في البيت
من أجل ما يشبهها وهي قوله خان وخان ويتخون ، وقوله أخ وأخا ، فاذا
تأملت المعنى وما أفسده من اللفظ لم تجد له حلاوة ولا فيه كبير فائدة ، لأنه
يريد « خان الصفاء أخ خان الزمان أجا من أجله إن لم يتخون جسمه السمك »
وبعد أن أورد ثلاثة أبيات أخرى قال ، فاذا تأملت شعره وجدت أكثره
سبيا على مثل هذا وأشباهه ، وقد ذكرت من هذه الأمثلة في شعره ما دل
على سواها .

ومن الحوشى الذى كان يتبعه ، ويتطلبه ويتعمد إدخاله في شعره قوله
أهيس أليس لجناء إلى همم تفرق الأسد في آذنها الليسا
يريد بالأهيس الخفيف اللحم وبالأليس الشجاع البطل ، وهاتان لفظتان
مستكرهتان إذا اجتمعتا ، ومع ذلك لم يقنع بهما حتى قال في آخر البيت
الليس ثائمة ،

ومما كثر في شعره من الزحاف واضطراب الوزن قوله:

وأنت بمضغ غايى وقرابى بها وبنو أبيك بنو أبنى
وهذا من أبيات النوع الثانى من الطويل ووزنه فعولن مفاعيلن وعروضه
رضرته مفاعل ، حذف نون فعولن من الأجزاء الثلاثة الأولى ، وحذف

الياء من مفاعيلن التي في المصراع الثاني، وذلك كله يسمى مقبوضا لأنه حذف خامسه، وبعد أن ذكر ستة أبيات أخرى، قال وهذه الزحافات جائزة في الشعر غير منكرة إذا قلت، أما إذا جاءت في بيت واحد في أكثر أجزاءه فأنها تكون نهاية الشبح، ويكون البيت بالكلام المشهور أشبه منه بالشعر الموزون، ثم قال ومثل هذه الأبيات في شعره كثير إذا أنت تتبعته، ولا تتكاد ترى في أشعار الفصحاء والمطبوعين على الشعر، من هذا الجنس شيئا.

معايب البحترى :

وبعد أن انتهى من أبي تمام إلى ما ذكرنا، قال « ولما كنت خرجت مساوى أبي تمام، وابتدأت بسرقاته. وجب أن أبتدىء من مساوى البحترى بسرقاته، فإنه أخذ من معاني من تقدم من الشعراء ومن تأخر أخذًا كثيرًا، حكى أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح أن ابن أبي طاهر أعلمه « أنه أخرج للبحترى مائة بيت مسروق، منها ما أخذه من أبي تمام خاصة مائة بيت، فكان ينبغى ألا أذكر السرقات فيما أخرجه من مساوى هذين الشعارين، لأننى قدمت القول فى أن من أدركته من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوى الشعراء وخاصة المتأخرين، إذ كان هذا بابا ما تعرى منه متقدم ولا متأخر، ولكن أصحاب أبي تمام ادعوا أنه أول سابق وأنه أصل فى الابتداء والاختراع، فوجب إخراج ما استجار من معاني الناس، ووجب من أجل ذلك إخراج ما أخذه البحترى أيضا من معاني الشعر، ولم أستقص باب البحترى ولا قصدت الاهتمام إلى تتبعه، لأن أصحابه ما ادعوا ما ادعاه أصحاب أبي تمام، بل استقصيت ما أخذه من أبي تمام خاصة، إذ كان من أقبح المساوى، أن يعتمد الشاعر ديوان رجل واحد من الشعراء، فيأخذ من معانيه. ولو كان هشة أبيات، فسكف والذى أخذه البحترى من أبي تمام يزيد على مائة بيت، فأما مساوى

البحترى من غير السرقات فقد دفقت واجتهدت أن أظفر له بشيء يكون بأزاء ما أخرجته من مساوى أبى تمام فى سائر الأنواع التى ذكرتها ، فلم أجد فى شعره - لشدة تحرزه وجودة طبعه وتهذيبه ألفاظه - من ذلك إلا أيبانا بسيرة أفا أذكرها عند الفراغ من سرقاته .

قال ذلك ثم أخذ يعدد سرقات البحترى من غير أبى تمام فيبلغ بها نحو الثلاثين وقال ، فهذا ما مر بي من سرقات البحترى من أشعار الناس على غير تنبغ ، ولعل لو استقصيتها لكانت نحو ماخرجته من سرقات أبى تمام وتزيد عليها ، ثم قال ، وهذا ماأخذه البحترى من معانى أبى تمام خاصة بما نقلته من صحيح ماخرجه الضياء بشر بن تمام السكاتب ، لأنه استقصى ذلك استقصاء بالغ فيه حتى تجاوز إلى ما ليس بمسروق فسكفا مئونة الطلب . وذكر عقب ذلك نيفا وستين سرقة ، تاركا من المائة التى عددها أبو الضياء نيفا وثلاثين لم يدها من السرقة ، إما لأنها من المعانى المشتركة بين الناس ، الجارية فى عاداتهم والمستعملة فى أمثالهم ومحاوراتهم مما ترتفع الظنة فيه عن الذى يورده أن يقال أخذه من غيره ، وإما لأنها لا تناسب ولا تقارب بين المعنيين فيها وليس إلا اتفاق وألفاظ ليس مثلها مما يحتاج واحد أن يأخذه من آخر ، إذ كانت الألفاظ مباحة غير محظورة ، ومثل لذلك بالنيف والثلاثين المذكورة ، وهذى أمثلة لكل نوع مما ذكر .

فما أخذه من غير أبى تمام قوله :

قوم ترى أرماحهم يوم الوغى مشغوفة بمواطن السكتمان

وهو مأخوذ من قول عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

الضارين بكل أبيض مرهف والطاعنين بجامع الأضغان

إلا أن قول عمرو فى غاية الجودة والأصابة ، لأنهم إنما يطاعنون الأعداء من أجل أضعفانهم ، فاذا وقع الطعن موضع الضغن فذلك غاية كل مطلوب .

ومما أخذه من أبى تمام قوله :

قوم إذا لبسوا البروغ لموقف لبسوا من الإجهين فيه ذروعا

أخذه من قول أبي تمام
 وتليس أخلاقاً كراماً كأنها على العرض من فرط الحصانة أدرع
 ومما لم يعده الأمدى سرقة لتداول معناه قول البحرى
 وأيامنا فيك اللواتى تصرمت مع الوصل أضيغات وأحلام نائم
 على أنه مأخوذ من قول أبي تمام
 ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكانها وكأنتهم أحلام
 أنكر على أبي الضياء عد هذا سرقة فقال « وكأنه ما سمع الناس يقولون
 ما كان الشيباب إلا حلماً وما كانت أيامه إلا نومة نائم »
 ومما لم يعده سرقة لعدم تناسب المعنى وتقاربه ، مع الاتحاد في بعض
 الألفاظ قوله

وميجل وسط الرجال خفوقهم لقيامه ، وقياسهم لعوده
 أنكر على أبي الضياء عد هذا مأخوذاً من قول أبي تمام
 إذا شب ناراً أقعدت كل قائم وقام لها من خوفة كل قاعد
 وقال « ليس أجد المعنيين من الآخر في شيء لأن أبا تمام أراد أن الممدوح
 إذا شب نار الحرب أقعدت كل قائم لقتاله ومنازحته خوفاً وفرقا ، وأزالته
 كل قاعد عن الطمأنينة والقرار فقلم منزعجا ، والبحترى إنما ذكر أن الرجال
 يخفون لقيام ممدوحه أى يسرعون بين يديه إذا قام ، فإذا قعد قاموا له لإجلاله
 وهيبته ، لأن من شأنه ألا يجلس أحد بجوسه وأن يكون الناس كلهم قياما
 إذا جلس ، والمعنيان مختلفان وليس بينهما اتفاق إلا في ذكر القيام والقعود
 والألفاظ مباحة :

وقد عد من أخطائه في المعاني عشرين مثلاً سودى في التعليق على بعضها ثلاث
 صفحات ، منها قوله :

قف العيس قد أدنى خطاها كلالها وسل دار سعدى إن شفاك سؤاها
 قال الأمدى هذا لفظ حسن ومعنى ليس بالجيد ، لأنه قال قد أدنى
 خطاها كلالها أى قارب من خطوها الكلال ، وهذا كأنه لم يقف لسؤال

الدار التي تعرض لأن يشفيه سؤاها ، وإنما وقف لأعياء المظلي ، والجيد قول عذرة لأنه لما ذكر الوقوف على الدار احتسأ بأن شبه ناقته بالقصر فقال :

فوقفت فيها ناقتي وكأنها فدن لا أقضى حاجة المتلوم
قال ذلك ليعلم أنه لم يقف بها ليريحها . وقد كشف عن هذا المعنى ذوالرمة
فأحسن وأجاد حيث قال :

أنخت بها الوجناء لامن سامة لثنتين بين اثنين جاء وذاهب
فان قيل فأنما قال قد أدنى خطاها كلالها ليعلم أنه قصد الدار من شقة
بعيدة ، قيل العرب لا تقصد الدار للوقوف عليها وإنما اجتاز بها فان كانت على
سنن الطريق قال لصاحبه قف ، وإن لم تكن عليه قال عج أي عرج
وما عيب عليه من التعسف والتعقيد في اللفظ قوله

فتى لم يمل بالنفس منه عن العلاء الى غيرها شيء سواه يميلها
فان الضمير في سواه يعود على فتى أي سواه من الأشخاص هو الذي
يميل نفسه عن العلاء ، لا على شيء الذي هو فاعل يميل . وعلى سلامة البيت
بهذا التخريج من عيب اللحن لم يسلم من عيب التعسف ، قال الأمدى ولست
أعرف بيتا تعسف في نظمه غير هذا

قال ومن ردىء التجنيس وقبحه قوله

أمتا أن تصرع عن سماح وللآمال في يدك اضطراع
يقول أمتا أن يغالبك غالب يصرعك عن السماح ويمنعك منه وللآمال
في يدك اضطراع ، أي تنافس وتغالب في ازدحام ، وقوله في يدك لأن العطاء
اليها ينسب .

وقال عن اضطراب الوزن في شعر البحتري ، وقد جاء في شعره بيت
هو عندي أقبح من كل ما عيب به أبو تمام في هذا الباب وهو قوله :
ولماذا تتبع النفس شيئاً جعل الله الفردوس منه بواء

قال كذلك وجدته في أكثر النسخ وهو خارج عن الوزن لأنه الأول من الخفيف الذي وزنه فاعلاتن مستفعلان فاعلاتن مرتين، دخله كثير من الزحاف بالحذف كما دخله الاكتفاء حيث زيد فيه بسبب خفيف هو هاء الله ولام الفردوس ، . وأخيراً قال وما رأيت شيئاً مما عيب به أبو تمام الا وجدت في شعر البحترى مثله ، الا أنه في شعر أبي تمام كثير وفي شعر البحترى قليل .

الموازنة بين الطائنين : —

قال الأمدى وأنا أذكر بأذن الله الآن في هذا الجزء ، المعاني التي يتفق فيها الطائنان فأوازن بين معنى ومعنى وأقول أيهما أشعر في ذلك المعنى بعينه ؛ فلا تطلبني أن أتعدى هذا إلى أن أفصح لك بأيهما أشعر عندي على الاطلاق ، فاني غير فاعل ذلك ، لأنك إن قلدتني لم تحصل لك الفائدة بالتقليد ، وإن طالبت بالعلل والأسباب التي أوجبت التفضيل فقد أخبرتك فيما تقدم بما أخاط به على من نعت مذهبيهما وذكر مطلوبيهما ، في سرقة معاني الناس وفي إحالتهما وغلطهما في المعاني والألفاظ ، وإساءة من أساء منهما في الطباق والتجنيس والاستعارة ورداءة النظم واضطراب الوزن ، وغير ذلك مما أوضحته في مواضعه وبنيته وما سيحود ذكره في الموازنة من هذه الأنواع على ما يقوده القول وتقتضيه الحجة ، وما استراه من محاسنهما وبدائعهما وكيف أوقع الكلام على جميع ذلك وعلى سائر أغراضهما ومعانيهما في الأشعار التي أرتبها في الأبواب وأنه على الجيد وأفضله على الردي وأبين الردي وأرذله ؛ وأذكر من علل الجميع ما ينتهي اليه التخليص وتحيط به العناية وينبغي ما لم يمكن إخراجهم الى البيان وإظهاره الى الاحتجاج ، وهو علة ما لا يعرف الا بالدربة ودائم التجربة وطول الملاسة ؛ وهذا يفضل أهل الحداقة بكل علم وصناعة ، من سواهم عن نقصت قريحته وقلت دربته بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطباع وامتزاج ، وإلا لا يتم ذلك ؛

وأكلك بعد هذا الى اختيارك وما تقضى عليه فطنتك وتميزك ، فينبغي أن تتم النظر فيما يرد عليك ، ولن ينتفع بالنظر الا من يحسن أن يتأمل ، ومن إذا تأمل علم ومن إذا علم أنصف . ثم بعد ذلك أخذ يفصل القول في علم الشعر وأنه فن يحتاج إلى استعداد ودرية كسائر الفنون ، وأن منه ما تحيط به المعرفة ولا تؤديه الصفة ، وأن نهاية البصيرة فيه معرفة هذه الصفة أو الوقوف عند تلك الاحاطة ، وشرع في تطبيق ذلك على محاسن أبي تمام تارة وعلى محاسن البحتري^١ أخرى ، وقال بعد ذلك التفصيل الذي استغرق ست صفحات « وأنا أجمع لك معاني هذا الباب في كلمات سمعتها من شيوخ أهل العلم بالشعر ، زعموا أن صناعة الشعر وغيرها من سائر الصناعات لا تجود وتستحكم إلا بأربعة أشياء ، جودة الآلة ، وإصابة الغرض المقصود ، وصحة التأليف والانتهاء إلى نهاية الصفة من غير نقص منها ولا زيادة عليها » ثم شرح ذلك في أكثر من صفحة ، وبعد الشرح دخل في الموازنة فقال « وأنا أبتدىء باذن الله منها بذكر الوقوف على الديار والآثار ووصف الدمن والأطلال ، والسلام عليها وتعفية الدهور والأزمان والرياح والأمطار إياها ، والدعاء بالسقيا لها والبكاء فيها ، وذكر استعجابها عن جواب سائلها ، وما يخلف قطينها الذين كانوا حلولاً لها من الوحش ، وفي تعنيف الصاحب على لومهم على الوقوف بها ، ونحو هذا مما يتصل به من أوصافها ونعوتها ، وأقدم من ذلك ابتداءات قصائدكم في هذه المعاني إن شاء الله » هـ

وبعد فهذه واحدة من تلك الموازونات ، قال أبو تمام في وصف الديار والبكاء عليها فأحسن وأغرب .

أما الرسوم فقد أذكرت ما سلما
لا عذر للصب أن يفنى السلو ولا
حتى يظل بماء سافح ودم
فلا تحكفن من شأنك أو يكفا
للدمع بعد مضى الحى أن يكفا
في الربع يحسب من عينه قدير عفا

وهذا المعنى الأخير ليس له وإنما أخذه من قول أبي وجزة
 عيون تراهى بالرعاف كأنه ° من الشوق صردان تدب وتلاح
 قيل في تفسيره ، شبه الدمع وقد عصفره الدم بالرعاف ، وشبهه العيون
 وهى تفيض بالدمع تارة وتحبسه أخرى بالصردان تنفض تارة وتطير عرضا
 من الأرض تارة ، وببيت أبي تمام أجود لفظا ونظما ، ولا أظن البحترى
 ذهب الى مثل هذا المعنى ولا للمعنى الذى فى البيتين قبله ، ولسكنه يعتذر مرة
 بقلة دمعه ، ومرة يفتخر بكثرة ، وفى كل ذلك يحسن ويجيد .
 فمن اعتذاره قوله :

فما ابتدارك الملام ولوعا أبكيت الادمنة وربوعا
 يأدار غيرها الزمان وفرقت أيدي الحوادث شملها المجموعا -
 لو كان لى دمع يحسن لوعى خبيته فى عرصتك خليعا
 لا تخطى دمعى الى فلم يدع فى مقاتى جوى الفراق دموعا
 فيقوله فى ابتداء القصيدة « أبكيت لإدمنة وربوعا » قد أخبر أنه بكى
 ثم قال « لو كان لى دمع يحسن لوعى » أى لو كان لى دمع غزير يلىق بلوعى
 وينبئ عنها ، وكذلك قوله « فلم يدع فى مقاتى جوى الفراق دموعا » أى دموعا
 كافية أرضاها أو دموعا تسعنى ، لأنه استقبل دمعه واستنزره ، أو أن يكون
 انقطع دمعه ، ومن افتخاره قوله :

لعمرك إن الدارسات لقد عدت برىا سعاد وهى طيبة العرف
 بكينا فن دمع يمازحه دم هناك ومن دمع نجود به صرف
 وهذا حسن جدا ، وإنما أخذ قوله « برىا سعاد وهى طيبة العرف » من قول
 الآخر ، أنشده الأخفش عن المبرد ،

واستودعت نشرها الديار فما تزداد إلا طيبا على القدم
 وهذا أجود من بيت البحترى لما فيه من الزيادة الحسنة وهى قوله « فما تزداد
 إلا طيبا على القدم » . .

٢ - الجرجاني في كتاب الوساطة بين المتنبئ وخصومه

قال الجرجاني في وساطته بين المتنبئ وخصومه من المقدمة البالغة نحو
 الحسين صفحة ، حول ما ينبغي أن يكون عليه الحكم في الأنصاف ومازلت
 أرى أهل الأدب منذ ألحقتني الرغبة بحملتهم ، ووصلت العناية بيني وبينهم ،
 في أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبئ فشتين ، فن مطيب في تقرظه منقطع
 إليه بحملته منحط في هواه بلسانه وقلبه ، يتلقى مناقبه إذا ذكرت بالتحظيم
 ويشيع محاسنه إذا حكيت بالتهفيم ، ويعجب ويعيد ويكرر ويميل على من
 عابه بالزراية والتقصير ، ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتجھيل ، فان عثر
 على بيت مختل النظام أو نبه على لفظ ناقص عن التمام ، التزم من نصرة
 خطئه وتحسين زلله ، ما ينيله عن موقف المعتذر ويتجاوز به مقام المنتصر .
 ومن عائب يروم إزالته عن رتبته ، فلا يسلم له فضله ، ويحاول حطه عن منزلة
 بواه إياها أدبه ، فهو يجتهد في إخفاء فضائله وإظهار معايبه وتتبع سقطاته
 وإذاعة غفلاته . وكلا الفريقين اما ظالم له أو للأدب فيه . وكما أن الانتصار
 جانب من العدل لا يسده الاعتذار ، فكذلك الاعتذار جانب هو أولى به
 من الانتصار ، ومن لم يفرق بينهما وقفت به الملامة بين تفریط المقصر
 وإسراف المفرط ، وقد جعل الله لكل شيء قدرا وأقام بين كل حديث فصلا ،
 وليس يطالب البشر بما ليس في طمع البشر ولا يلتبس عند الأدب إلا ما كان
 في طبيعة ولد آدم ، وإذا كانت الحلقة مبنية على السهو وممزوجة بالنسيان ،
 فاستسقاط من عز حاله حيف والتحامل عن من له وجه ظلم ، وللفضل آثار
 ظاهرة وللتقدم شواهد صادقة ، فتى وجدت تلك الآثار وشوهدت هذه
 الشواهد ، فصاحبها فاضل متقدم ، فان عثر له من بعد على زلة ووجدت له
 بعقب الأحسان هفوة ، انتحل له عذر صادق أو رخصة سائغة ، فان أعوز ،
 قبل زلة عالم وقل من خلا منها وأى الرجال المهذب ، ولولا هذه الحكومة
 لبطل التفضيل ، ولم يكن لقولنا « فاضل » معنى يوجد أبدا ، ولم نسم به إذا

أردنا حقيقة أحداً ، وأى عالم سمعت به ولم يزل ويغلط أو شاعر انتهى إليك ذكره لم يهف ولم يسقط ، ودونك ه ذه الدواوين الجاهلية والاسلامية فانظر ، هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدر فيه ، إما في لفظه ونظمه أو ترتيبه وتقسيمه أو مجناه أو إعرابه ، إلى هنا وأخذ يسوق أمثلة عدة لما أخذ متنوعة على شعراء الجاهلية والإسلام ، خرج منها إلى التعريف بالشعر فكان مما قال :-

« وأنا أقول أيدك الله ، إن الشعر علم من علوم العرب ، يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه ، فن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، ويقدر فصيح منها تكون مرتبته من الأصالة ، ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهل والمخضرم والأعراب والمولد ، إلا أنني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر ، فإذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها ، أن المطبوع الذكي ، لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلا رواية ، ولا طريق للرواية إلا السمع ، وملاك الرواية الحفظ ، وقد كانت العرب تروى وتحفظ ويعرف بعضها برواية شعر بعض ، وبعد أن أظن القول في ذلك وأتبعه بتفاوت الشعراء في الشعر ، وتأثير الطباع والأمكنة في رفته وجفائه ، قال « فلما ضرب الإسلام بحجرانه واتسعت بمالك العرب وكثرت الحواضر ونزعت الجوادي إلى القرى ونشأ التأديب والتظرف ، اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله ... وتجاوزوا الحد في طلب التسهيل حتى تسمجوا ببعض اللحن وحتى خالطتهم الركافة والعجمة ، وأعانهم على ذلك لين الحاضرة وسهولة طباع الأخلاق ، فانتقلت العادة وتغير الرسم واتسخت هذه الشبه ، واحتلوا بشعرهم هذا المثال ، فترفقوا ما أمكن وكسوا معانيهم اللطيف ما سنج من الألفاظ ، فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول ، يتبين فيها اللين فيظن ضعفا . وإذا أفردت عاد ذلك اللين صفاء ورونقا ، وصار ما تخيلته ضعفا ورساقا ولطفا ، فان رام أحدهم الأعراب والافتداه بمن مضى من

القدياء ، لم يتمكن من بغض ما يروم إلا بأشد تكلف وأتم تصنع ، ومع
 التكلف المقت ، وللنفس عن التصنع نفرة ، وفي مفارقة الطبع قلة الخلاوة
 وذهاب الرونق وإخلاق الديباجة ، وربما كان ذلك سببا لطمس المحاسن ،
 كالذي نجده كثيراً في شعر أبي تمام ، فإنه حاول من بين المحدثين ، الاقتداء
 بالآوائل في كثير من ألفاظه فحصل منه على توعير اللفظ وتبجح في غير
 موضع من شعره ، قال هذا ومثل له بما لم يرضه من شعر أبي تمام بمقارنا
 إياه بما ارتفع فيه إلى الأوج وقال : ولست أقول هذا غضا من أبي تمام
 ولا تهجينا لشعره ولا عصبية عليه لغيره ، وكيف وأنا أدين بفضله وتقديمه
 وأنتحل موالاته وتمظيمه وأراه قلة أصحاب المعاني وقودة أهل البديع ،
 لئسكن ما سمعتهني أشرت به في صدر هذه الرسالة ، يحظر إلا اتباع الحق وتحري
 العدل والحسب به له أو عليه ، ثم عاد إلى مثل الذي كان فيه من شعر أبي تمام
 وخرج منه إلا أن الشعر أنواع وفنون ، وأنه لا يحسن أن يجريها الشاعر
 مجرى واحدا من حيث الألفاظ ، بل عليه أن يقسم ألفاظها على رتب معانيها
 فلا يكون غزله كاختاره ، ولا قوله في وصف ميدان الحرب والسلاح
 كقوله في وصف مجلس الشرب والمدام ، وهكذا ، وأشار بتصفیح شعر جرير
 وأبي الرمة ، وتتبع نسيب متميضي العرب ومتغزلي أهل الحجاز ، كعمر
 وكثير ونصيب في القدياء ، ليعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب وعظيم
 غنائه في تحسين الشعر ، ثم قال : ومتى أردت أن تعرف ذلك عيانا وتستهتمته
 مواجيه ، لتعرف فرق ما بين المطبوع والمصنوع ، وتصل ما بين السمع المتقاد
 والنصب المستكره ، فاعمد إلى شعر الباحثين في المتأخرين ، ودع ما يصدر به الاختيار
 ويعد في أول مراتب الجودة ويدين فيه أثر الاحتفال ، وعليك بما قاله عن عفو خاطره
 وأول فسكرته ، وبعد أن ذكر لهذا عدة أمثلة من نسيبه قال : « انظر هل تجد معنى
 ممتدلا ولفظا مشتهرا مستعملا ، وهل ترى صنعة وإبداعا أو تدقيقا وإغرابا
 وتأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده ، وتفقد ما بداخلك من الارتياح ويستخفك
 من الطرب إذا سمعته ، وتذكر صبوة إن كانت لك ، تراها بمثابة لضميرك

ومصورة تلقاء ناظرک ، فان قلت هذا نسيب والنفس تمس له والقلب
 يعلق به والهوى يستريح اليه ، فأشده في المدح واخرج إلى الاستعطاف
 وخذ في الخطاب ، وبعد تمثيله لذلك أيضا قال « وإنما أحلتك على البحتری
 لأنه أقرب بنا عهداً ونحن به أشد أنساء وكلامه أليق بطباعنا وأشبه بعاداتنا ،
 وإنما تألف النفس ما جانسها وتقبل على الأقرب فالأقرب إليها ، ولما لم يكن
 قدم مثل لما أشار إليه من شعر القدامى انثى يقول « فان شئت أن تعرف
 ذلك في شعر غيره كما عرفته في شعره . وأن تعتبر القديم كاعتبار المولد »
 فأشده قول جرير :

ألا أيها الوادى الذى ضم سيله الينا نوى ظمياء حيمت واديا
 واستمر في القصيدة حتى أكلها أربعة وثلاثين بيتا وقال « وإنما أثبت
 لك القصيدة بكاملها ، ونسختها على هبتها ، لترى تناسب أبياتها وازدواجها
 واستواء أطرافها واشتباها وملازمة بعضها لبعض ، مع كثرة التصرف
 على اختلاف المعاني والأغراض ، وأخذ يوازن بينها وبين شعر شاكلها
 للجاهليين والاسلاميين ، مفضلا إياها ، وعطف على ما للاعراب والاسلاميين
 وبعض المحدثين من جيد يشاركها ، وعرج بعد ذلك على ما لم يكن يعبره هؤلاء
 التفاتا من ألوان الصنعة في التجنيس والتصحيف والمطابقة والتقسيم وعدم الحفل
 بالابداع والاستعارة ؛ كما يفعل سائر المحدثين ؛ مثلا لذلك بالكثير من
 شعر هؤلاء ؛ إلى أن قال في نهاية المقدمة « وإنما قدمنا هذه التنبؤ توطئة لما
 نذكره على أثرها وتدرى مجال ما بعد ، ليكون كالشاهد المقبول قوله وبمنزلة المسلم
 أمره ، والشاعر الخاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة ،
 فانها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الأصغاء ، ولم تكن
 الأوائل تخصها بفضل مراعاة ، وقد احتذى البحتری على مثالهم إلا في
 الاستهلال فانه عنى به فاتفت له فيه محاسن ، فأما أبو تمام والمتنبى فقد ذهبا في
 التخلص كل مذهب واهتما كل اهتمام ، واتفق للمتنبى فيه خاصة ما بلغ المراد
 وأحسن وزاد . »

تلك هي النقاط التي تناولها الجرجاني في وساطته بين المتنبي وخصومه ،
ومنها خرج إلى ما تكلفه من الوساطة فقال : ثم تعدل إلى ما تكلفناه في هذه
الوساطة فنقول : إن خصم هذا الرجل فريقان ، أحدهما يعم بالنقص كل
محدث ولا يرى الشعر إلا القديم الجاهلي ، وما سالك ذلك المنهج وجرى
على تلك الطريقة ، ويزعم أن ساقه الشعراء رطوبة وابن هرمة وابن ميادة
والحكيم الحضرمي ، فإذا انتهى إلى من بعدهم كيشاز وأبي نواس وطبقتهم
سمى شعرهم ملحا وظرفا ، واستحسن منه البيت بعد البيت استحسان النادرة
وأجراه مجرى الفكاهة ، فإذا نزلت به إلى أبي تمام وطبقته نفى يده وأقسم
وأجهد أن القوم لم يقرضوا بيتا ولم يقهوا من الشعر إلا بالبعد ، ومن هذا
رأيه ومذهبه وهذه دعواه ونحلته ، فقد أعطاك ما أردت من وجه وإن
طاعتك سواه ، وسمح لك بما التمس وإن أتوى عليك في غيره ، لأن الذي
انصببت له وشغلت عنيتك به ، إنما هو إلحاق أبي الطيب بهذه الطبقة
وإضافته إلى هذه الجملة ، وقد بطل ذلك وقرب مطالبه عليك ، فإن تكن الجماعة
منسلخة من الشعر موسومة بالنقص مستحقة للنفي ، فصاحبك أولهم ،
وان تكن قد علفت منه بسبب وحظيت منه بطائل فهو كأحدكم... والآخر
وهو خصمك الألد ومخالفك المعاند ، من استحسنت رأيك في إنصاف شاعر
ثم ألزمتك الحيف على غيره ، وساعدتك على تقديم رجل ثم كلفك تأخير
مثله ، فهو يسابقك إلى مدح أبي تمام والبحتري ، ويسوغ لك تقريرا بن المعز
وابن الرومي ، حتى إذا ما ذكرت أبا الطيب ببعض فضائله وأسميته في عداد
من يقصر عن رتبته ، امتعض امتعاض الموتور ونقر نقران المضميم ، فنفض
طرفه وثني عطفه وصعر خده وأخذته العزة بالأثم . وبعد فأنا أقبل عليك
أيها الراوي المثبت فأقول لك ، خبرني عن تنظمه من أوائل الشعراء ومن
تفتتح به طبقات المحدثين ، هل خلاص لك شعر أحدكم من شائبة وصفا
من كدر ومعاية ، فإن ادعيت ذلك وجدت العيان حجيجك والمشاهدة
خصمك ، فإن قلت قد أعر بالبيت بعد البيت أنككره ، وأجد اللفظ بعد اللفظ

لا أستحسنة ، وليست كل معانيهم عندي مرضية ولا جميع مقاصدهم صحيحة مستقيمة ، قلنا ، فأبو الطيب واحد من الجملة فكيف خص بالظلم من بينها ، ورجل من الجماعة فلم أفرد بالحيف دونها ، وإن قلت أكثر زلله وقل إحسانه وأقست معانيه وضائق محاسنه ، قلنا هذا ديوانه حاضرأ وشعره موجودا يمكننا، هلم نستبرئه ونتصفحه ونقلبه ونمتحنه ، ثم لك بكل سيئة عشر حسنة وبكل نقیصة عشر فضائل ... ذلك رأي الجرجاني في حجتي خصي المتنبی، أما رأيه هو فيه فيضح من قوله لمن يحاجه « إنك لا تدعى لأبي الطيب طريقة بشار وأبي نواس ، ولا منجاج أشجع والحريمي ، ولو ادعيت له لكنت تخادع نفسك أو تباهت عقلك ، وإنما أنت أحد رجلين ، إما أن تدعى له الصنعة المحضنة فتلقه بأبي تمام وتجعله من حزبه ، أو تدعى له فيه شركا وفي الطبع حضا ، فإن ملت به نحو الصنعة فضل ميل صيرته في جنب مسلم ، وإن وفرت قسطه من الطبع عدلت به قليلا نحو البجترى ، وأنا أرى لك إذا كنت متوخيا للعدالة مؤثرا للانصاف ، أن تقسم شعره فتجعله في الصدر الأول تابعا لأبي تمام ، وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم ، وبعد أن جال جولة طويلة فيمن لهج بعيب المتأخرين من حفاظ اللغة وجلة الرواة وإن أحسنوا ، فاعيا عليهم هذا العيب ، وبين ما للمحدثين من إحسان كبير بجانب إساءات قليلة ووازن بين حسناتهم والسيئات في شعر أبي نواس وأبي تمام ضاربا لذلك الكثير من الأمثال ، صرح بأنه لم يبلغ من وراء هذا ذكر الهنوات ، وإنما بنى الاعتذار لأبي الطيب لا النجى على أبي نواس وأن تمام فقال مخاطبا من يخاصم ويحاجد وإنما خصصت أبا نواس وأبا تمام لأجمع لك بين سيد المطبوعين وإمام أهل الصنعة فأريك أن فضلهما لم يحكما من ذلك ، وأن إحسانهما لم يصف من كدر ، فإن أنصفت فلك فيهما عبرة ومقنع ، وإن لجججت فاتفنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ، ، وبعدئذ دخل دخولا حقا في تحليل شعر المتنبی تحليلا ينبىء عن معانيه أو يشيد بمحاسنه . ولم يتقبل أمر الموازنة

بينه وبين غيره ، وسأملك في عرض آرائه الطريق التي سلكها الأمدى في أنى تمام والبحثى وإن خالفت ترتيب الوساطة .

١ - المتنى والسرقه

اختار الجرجاني في كتابه أسلوب الخطاب لخصيم المتنى في حاجته كما رأيت فيما سبق من المقدمة ، وعليه سار في سائر ما تناوله بالكتاب ، وحين تعرض للكلام على سرقات المتنى قدم لها بالتكليم في السرقة على وجه عام ثم أخذ يعدد سرقات المتنى فمؤد في ذلك نحو نصف كتابه وكان مما قاله وهذا باب لا ينهض به إلا الناقد البصير والعالم المبرز ، وليس كل من تعرض له أدركه ولا كل من أدركه استوفاه واستكماله ، ولست تعد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر ، حتى تميز بين أصنافه وأقسامه وتحيط علما برتبته ومنازله ، فتفصل بين السرقة والغصب وبين الإغارة والاختلاس ، وتفرق بين المشترك الذى لا يجوز ادعاء السرقة فيه والمبتذل الذى ليس أحد أولى به ، وبين المختص الذى حازه المبتدئ فليتك وأحياء السابق فاقطعه ، فصار المعتدى محتسبا سارقا والمشارك له محتديا تابعا ، وتعرف اللفظ الذى يجوز أن يقال فيه أخذ ونقل والكلمة التى يصح أن يقال فيها هى لفلان دون فلان - إلى أن قال - فإذا اعتبرت ما يصح فيه الاختراع والابتداع فوجدت منه مستفيضا متداولاً متناقلا لا يعد فى عصرنا مسروقا ولا يحسب مأخوذا وإن كان الأصل فيه لمن انفرد به ولأوله الذى سبق إليه - إذا اعتبرت ذلك - تصنف لك صنفان ، صنف مشترك عام الشركة لا ينفرد واحد منه بسهم ولا يختص بقسم ، كحسب الشمس والقمر ومضاء السيف وبلادة الحمار وجود الضيف وحيرة الخببول ، ونحو ذلك مما هو مقرر فى البداية ومركب فى النفس ، وصنف سبق المتقدم إليه ففاز به ثم تدوول بعد فكثير واستعمل حتى صار كالأول فى الجلاء والاستشهاد والاستفاضة على ألسن الشعراء خمي نفسه عن السرقة ، وأنزل عن صاحبه منزلة الأخذ ، كتمثيل الظلل بالكتاب والفتاة بالقران ، وأخير أقال ،

والسرق؛ أي ذلك الله داء قديم وعيب عميق، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمدد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه... ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا ثم العصر الذي بعدنا أقرب فيه إلى المذخرة وأبعد من المذمة، لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها وأتى على معظمها، وإنما يحصل الحاضر على بقايا، إما أن تكون قد تركزت رغبة عنها واستهان بها أو لبعدها مطلبها واعتمادها على ما قبلها وتعدى الوصول إليها، ومتى أجهد أحدا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريباً مبتدعاً، ونظم بيت يحسبه فريداً مخترعاً، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه أو يجده له مثلاً يعرض من حسنه، ولهذا السبب أحظر على نفسي ولا أرى لغيري بت الحكم على شاعر بالسرقة، إلا أنى إذا وجدت في شعره معاني كثيرة أجدها لغيره، حكمت بأن فيها ما يجوز لا أثبتة بعينه ومبروقاً لا يتميز لي من غيره، وإنما أقول قال فلان كذا وقد سبقه إليه فلان فقال كذا، فأختمت به فضيلة الصدق وأسلم من اقتحام التهور.

قال ذلك ثم أخذ يحضني مادعي فيه على أبي الطيب السرقة وما أضافه هو إليه مما عثر به، حتى جاوز في الإحصاء أربعاً مائة معنى، سيان في ذلك ما كان السابق فيه لمحدث أو لغيره من إسلامي أو جاهلي أو لا أكثر من واحد من هؤلاء، وسيان في ذلك ما أساء فيه أبو الطيب الأخذ وما أجاد، وهنئ طائفة متنوعة من الأمثلة على ما ذكر :-

قال أبو تمام

وما سافرت في الأفاق إلا ومن جدواك والواحلي وزادني

أخذه أبو الطيب فقال

حكك حينما اتجهت ركابي وضيفك حيث كنت من البلاد

وهذا من أقبح ما يكون من السرقة، لأنه يدل على نفسه باتفاق المعنى والوزن والتألفية، ومثل المصراع الأول لأبي الطيب وهو محتمد، قول البحتری متى ما أسير في البلاد ركابي أجد سائقي يهوى إليك وقائدي

وقد لاحظ أبو تمام قول المنقب

إلى عمرو ومن أنني عليه أخي النجيدات والحلم الوزين

وقال جرير

كأن رموس القوم فوق رماحنا غداة الوغى تيجان كسرى وقهصرا

فقال مسلم

يكسو السيوف نفوس الناكثين به ويحمل الهام تيجان القنا الذبل

أخذه المتنبي فقال

مهرقى خيلهم بالبيض مشحذى هام الحكاة على أرماحهم عذبا

وقريب من قول جرير قول أبي تمام

أبدلت أروسهم يوم السكرية من قنا الظهور قنا الخطى مدغما

ولست أرى هذا من سرقات أبي تمام ، لأنه ليس فيه أكثر من رفع

الرموس على القنا وهذا مشترك لا يسرق ، فأما إبدال القنا بقنا الظهور فلم

يعرض له مسلم ولا جرير وهي ملاحظة بصيدة ، وأقرب من ذلك إليه قول

أبي تمام

من كل ذي لمة غطت ضفائرها صدر القناة فكادت أن ترى علما

وقال عنتره

وأنا المنية في المواقف كلها والظعن منى سابق الأجال

فقال أبو تمام

يكاد حين يلاقى القرن من حنق قبل السنان على حو بائه يرد

أخذه أبو الطيب فقال

يسابق سفي منايا العبا د إليهم كأنهما في رهان

ثم قلبه وغيره فقال

يكاد من طاعة الخمام له يقتل من ما دنا له أجل

وقال الأفوه الأودي

وترى الطير على آثارنا رأي عين ثقة أن يستأجر

فقال النابغة

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
وقال حميد بن ثور

إذا ما غدا يوما رأيت غمامة
وقال أبو نوس

تأين الطير غدوته
وقال أبو تمام

وقد ظلت عقبان أعلامه ضحى
أقامت مع الرايات حتى كأنها
أخذه أبو الطيب فقال

سحاب من العقبان يزحف تحتها
سحاب إذا استسقت سقطت صوارمه
فزاد إذ جعلها سحابتين تسقى السفلى العليا وهذا غريب ، وقد يعنيه
المتكلمون في هذا البيت بأمرين ، أحدهما أن السحاب لا يسقى ما فوقه ،
والآخر أن العقبان والطير لا تستسقى وإنما تستطعم ، وأنا أقول ،
فأما إسقاء السحاب ما فوقه فهو الذي أغرب به ، وليسكن لم يجعل الجيش سحابا
في الحقيقة فيمنع إسقاؤه ما فوقه وإنما أقامه مقام السحاب لتزاجه وكثافته ،
وقد فعلت العرب ذلك في أشعارها ، ولما سماه سحابا جعله يستسقى ،
وأما استسقاء الطير فجاء على عادة العرب في استعارة هذه اللفظة لكل طلب ،
تعظيما للقدرة الماء عندهم . وقد كرر أبو الطيب هذا المعنى فقصره ولطف فجاء كالمنى
المخترع ، فقال

يفدى أم الطير عمرا ملاحه
نور الملا أحداثها والقشاعم
وما ضرهما خلق بغير مخالط
وقد خلقت أسيافه والقوائم

٢ - الممتني وموقفه من غلط المعاني

للممتني معان وصفت بالفساد والاختلال ، أو التضارب والتناقض ،
أو التقصير عن الفرض والوقوع دون القصد ، أو البعد في الاستعارة والإفراط
في الصنعة أو المبالغة والاحالة .

وقد عد الجرجاني أمثلة لكل منها ، وهذا بعض ما عد ،

فما وقع فيه من فساد المعاني واختلالها قوله

وعذلت أهل العشق حتى ذقتهم فمجيبت كيف يموت من لا يعشق

وصعوبة العشق وشدته على أهله لا توجب ألا يموت من لا يعشق

فيجب منه ، وإنما تقتضى أن كل من يعشق يموت وكأنه أراد كيف لا يموت

من يعشق فذهب عن مراده ، كما حدث منه في قوله :

ولعل مؤمل بعض ما أبلغ باللفظ من عزيز حميد

فانه يريد ولعل بالغ بعض ما أو مل . ومنه قوله

خلائق لو حواها الزنج لانقلبوا ظمى الشفاء جماد الشعر خرانا

والزنجي لا يوجد إلا جماد الشعر وإنما تفرط الجمودة فيهم حتى تخرج عن حد

الاعتدال ، فكيف ينقلبون من الجمودة إلى الجمودة . ومنه قوله

كأنه من علمه بالمقتل علم بقراط فصاد الأكل

ولم يكن بقراط فصاداً ولا كان الفصد غالباً في زمانه وإنما أكثر بعده .

ومما وقع فيه من التضارب والتناقض قوله

الفاعل الفعل لم يقبل لشدته والقائل القول لم يترك ولم يقل

فكيف يكون القول غير متروك ولا مقول ، وهل هذه إلا مناقضة ظاهرة ،

ومنه قوله

يفضح الشمس كلما ذرت الشمس بشمس منيرة سوداء

والشمس لا تكون سوداء والآنارة تضاد السواد ، فقد تصرف في

المناقضة كيف شاء ،

ومما وقع فيه من التقصير عن الغرض والوقوع دون المقصد قوله
 بليت نبي الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في التراب خاتمه
 فانه أراد التناهي في إطالة الوقوف فبالغ في تقصيره ، وكم عسى هذا
 الشحيح - بالغاً ما بلغ من الشح وواقعاً حيث وقع من البخل - أن يقف
 على طلب خاتمه وهو ما ليس يخفى في التراب إذا طلب ولا يمس وجوده
 إذا فتش . ومنه قوله يرثي أخت ممدوح

وهل سمعت سلاماً لي ألم بها فقد أطلت وما سلمت من كذب
 وما باله يسلم على الحرم التي ليست من أهله ، وهذا يدل على ضعف
 البصر بمواقع الكلام ،

ومما وقع فيه من البعد في الاستعارة والافراط في الصنعة قوله

مسرة في قلوب الطيب مفرقها وحسرة في قلوب البيض واليب
 فكيف جعل للطيب والبيض واليب قلوباً ، وليس لها ما يشبهه ، القلب
 وهذه استعارة لم تجر على شبه قريب ولا بعيد ، وإنما تصح الاستعارة وتحسن
 على وجه من المناسبة وطرف من الشبه والمقاربة ، وكذلك قوله
 تحممت في فؤاده همم ملء فؤاد الزمان إحداها
 والزمان إذا نسب إليه شيء كان الأوفق أن يكون الساعد والعضد
 والمنسكب مثلاً

بقيت المبالغة والأحالة وهي أكثر هذه الأشياء يقغ فيها غير متوق ولا
 متحفظ ، متأثراً بما وقع للشعراء قبله ، كقوله في شدة الخوف
 وضافت الأرض حتى كان هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً
 غير مكثرت بالأحالة ولا مستقيم أن يجعل غير الشيء مرئياً ، متأثراً
 في ذلك بقول أبي تمام

أفي تنظم قول الزور والفسد وأنت أنزر من لا شيء في العدد
 وكقوله في لمان السيف

سهل الركب بعد وهن بنجد فنصدي للخيث أهل الحجاز

متأثراً بقول مهمل

ولولا الرخ أسمع من بحجر صليل البيض تفرع بالذكور
إلى غير تلك النواحي من عيوب المله التي قصد الجرجاني من وراء
ذكرها. عدم الشهادة لأبن الطيب بالعصمة ولا تبرئته من مقارفة الزلة، وأنها
إذا نسبت إلى ماله من إحسان وإجادة لا تقف به دون أهل طبخته ولا تقصر
به عن رتبته، إذ لا يجوز وهو من خول الشعراء أن تحبط حسناته بسيناته
أو يقضى من عام تيريزه بخاص تعذيره،

٣ - المتنبى وموقفه من خطأ الألفاظ

والمتنبى ألفاظ وصمت بالشذوذ على اللغة أو المخالفة للأعراب أو
الخروج على الوزن أو الاضطراب في الأسلوب، وقد عد الجرجاني لكل
منها أمثلة، وأكثرها للغة وأقلها للعروض والأسلوب وأوسطها للنحو،
وهذا بعض ما عد،

فن خطئه في الاستعمال اللغوي قوله

ليس التطل بالآمال من أدبي ولا القنوع بضنك العيش من شيمي
يريد القناعة، والقنوع المسألة لا القناعة، وبعضهم يروى البيت «ولا
القناعة بالاقبال من شيمي»، وذكر بعض رواة الشاميين أن المتنبى أنشده
قديماً القنوع ورجع عنه إلى القناعة بعد، ومنه قوله:

عوايس حلى يابس الماء حزمها فبن على أوساطها كالمساطر
والماء لا يوصف باليابس وإنما يقال جمد الماء. ومنه قوله:

فدا من على الغبراء أولهم أنا لهذا الأبى الماجد الجائد القرم
إذ لم يحك عن العرب الجائد وإنما المحسكى عنهم الجواد للرجل والمطر
والفرس. ومنه قوله:

بياض وجه يريك الشمس حالكة ودر لفظ يريك الدر مخش لنا
والمخشلب ليس في كلام العرب وهو الخرف.

ومن خطئه في مخالفة النحو قوله :

بيضاء يمنحها تكلم دها تيمها ويمنحها الحياء تيمسا

فمنض تيمس وتكلم مع حذيف أن : ومنه قوله :

حملت اليه من ثنائى حديقة سقياها الحجا سقى الرياض السحائب

يريد سقى السحائب الرياض ، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بغير

الظرف والحرف : ومنه قوله :

لم تر من نادمت إلا كما لا لسوى ودك لى ذا كا

فوصل الضمير بالا وحقه أن ينفصل عنها كما قال تعالى « هل من تدعون

إلا إياه » .

ومن خطئه بالخروج على الوزن العروضى قوله

تفكره علم ومنطقه حلم وباطنه دين وظاهره ظرف

بفعل عروض الطويل مفاعيلن في غير التصريع والصحيح أن يكون مفاعيلن

ومنه قوله :

إنما بدر بن عمار سحاب هطل فيه ثواب وعقاب

إنما بدر رزايا وعطايا ومنايا وطعان وضراب

فأخرج الرمل على فاعلاتن في العروض في جميع أبيات القصيد غير

غير المصرعة كما ترى في البيت الثانى ولا يكون كذلك إلا في التصريع أما في

غيره فيكون على فاعلن ،

ومن اضطراب أسلوبه قوله

بقائى شاء ليس هم ارتحالا وجسن الصبر زموالا الجمالا

يريد « بقائى شاء الأرتحال لا هم » ، وليس من الكلام ما هو أشد تعقيدا

وأظهر تكلفاً وأسوء ترتيباً من ذلك ، فضلا عن فعل الضمير في ليس

والصواب الاتصال ، ومنه قوله

جللا كما نبى فليك التبريح أغذاه ذا الرشا الأغن الشيح

يريد فليكن التبريح جللا كالذى نبى ، وبه من التعقيد ما ترى

إلى غير هذا بما ذكر الجرجاني في هذه الناحية ولكنه قال فيه إنه عيب مشترك وذنوب مقتسم ، فإن احتمل فالشكل وإن رد فعل الجميع ، وإنما حظ أبي الطيب فيه حظ واحد من عرض الشعراء وموقعه منه موقع رجل من المحذنين ،

٤ - الموازنة بين المتنبي وغيره

إن نظرة خاطفة إلى ما ذكره الجرجاني من سرقات المتنبي التي تجاوزت الأربعمائة واستغرقت نحو نصف كتابه ، وخضعة عابرة للبحان التي ألم بها فيها ، مقارنة بمحاني من سبقوه ، لترينا بجلاء فضله على غيره من الشعراء متى أوقفنا الموازنة على الأصول الثابتة والأسس الراسية التي تبناها وأرساها في كتابه ، ونقلنا بعضها فيما مضى ، وهالك إشارة إلى موازنتين أخريين : -

١ - قال من قصيدة طويلة في وصف حمى اعترته

وزائرتي كأن بها حياء	فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا	فعاقتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنهما	فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتني غسستني	كأننا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجري	مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق	مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر	إذا ألقاك في الكرب العظام

إلى آخرها وهي طويلة أوردتها الجرجاني كلها ثم قال ، وهذه القصيدة كلها مخنارة لا يعلم لأحد في معناها مثلها والآيات التي وصف فيها الحمى اخترع أكثر معانيها وسهل في ألفاظها ، فجاءت مطبوعة مصنوعة ، وهذا القسم من الشعر هو المظلم الموثس . وقد أحسن عبد الصمد بن المنذر في قصيدته الرائية التي وصف فيها الحمى ، ولكن أبا الطيب تنكب معانيه فلم يلم بشيء منها وهذا بعض الرائية ،

وبت المنية تنتابني هذوا وتطرقني صعره
 إذا وردت لم يزع وردها عن القلب خجب ولا صتره
 كأن لها ضرما في الحشا وفي كل عضو لها جهره
 إلى آخر ما ذكر الجرجاني ثم قال : وأنت إذا قست أبيات أبي الطيب بها
 على قصرها ، وقابلت اللفظ باللفظ والمعنى بالمعنى ، وكنت من أهل البصر
 وكان لك حظ في النقد تبينت الفاضل من المفضول .

٢ - وقال يصف الأسد

وقعت على الأردن منه بلية نضدت بهنا هام الرفاق تلولا
 متخضب بدم الفوارس لابس في غياله من لبدته غيلا
 ما قوبلت غيناه إلا ظنتا تحت الدجى نار الفريق حلولا
 يطأ الثرى مترققا من تبه فكأنه آس يحس غيلا
 ويرد عفرته إلى يافوخه حتى تصير لرأسه إكليلا
 إلى آخر ما ذكر منها وهي طويلة ، قال الجرجاني ، ولولا أبيات البحترى
 في هذا المعنى لعددت هذه من أفراد أبي الطيب ، لسكن البحترى قالها يصف
 قتل الفتح بن خافان أسدا عرض له ، ومنها .

خذاة لقيت الليث والليث مخدر يحدد نابا للقاء ومخلبا
 فلم أر ضرغامين أصدق منك عراكا إذا الهيابة النكس كدبا
 هزير مشى يبعث هزيراً وأغلب من القوم يمشى بأسل الوجه أغلبا
 أدل بشعب ثم هالته صولة رآك لها أمهي جنانا وأشعبا
 فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
 حملت عليه السيف لا عزمك اثني ولا يدك ارتدت ولا حده نيا
 وبعد فقد ذكر الجرجاني في وساطته ، غير الموضوعات التي أشرنا إليها
 عن المتنبي ، جملة مقطعات اختارها من جيد شعره فبلغ بها نحو المائة ، وأتبعها
 بما كل المائة وزاد مما استحسن له من جودة المطالع وحسن التلخيص والانتهاه ،
 ثم أحجب هاتين بأبيات مفردة تجاوز بها الخمسين بقية المائة ، منها ما يجري

مجرى الأمثال السائرة ، ومنها ما حمل معاني مستوفاة بذت نظائرها وأشباهاها ،
 مهداً لذلك كله بقوله وهو ما نختتم به تحليلنا لهذا الكتاب ، قال يخاطب حاجه :
 « وليس من شرائط النصفة أن تنحى على أبي الطيب بيتا شذ ، ولفظة ندرت ،
 وقصيدة لم يسعد فيها طبعه ، وكلمة قصرت عنها غايته ، وتنسى محاسنه وقد
 بهرت الأبصار ، وروايته وقد ملأت الأسماع ، ولا من العدل أن تؤخره
 للهفوة المنفردة ولا تقدمه للفضائل المجتمعة ، وأن تحبطه للزلة العابرة ولا تنفعه
 بالمناقب الباهرة ، وكيف أسقطته عن طبقات الفحول وأخرجته من ديوان
 المحسنين ، لهذه الأبيات التي أنكرتها ، ولم تسل له قصب السبق ونصال
 النضال ، وتمنون باسمه صحيفة الاختيار » .

السباعي بيوعى

(٥) بنو تميم في سماء العروبة

للدكتور عبد العزيز مزروع

المدرس بالقبة الثانوية

(١) المصارعات اللغوية (٢) تطبيق قوانينها على قريش والعرب (٣) اللغة الألمانية والسويسرية (٤) اللغة الفرنسية والسلتية في مقاطعة بريتون بفرنسا (٥) اللسان السلتي والانجليزى في أيرلندة (٦) كيف استولى القرشيون على مفاتيح الكعبة؟

(١) جمعتى المصادفات السعيدة بكبير من أصدقائى الدكارة ، فقال لى ...
اطلمت على كلامك فى (لهجة بنى تميم) ومحاولتك السموبهم على قريش ولهجتها ونسيت أن القرآن نزل بها ، لأنها كانت قد امتصت اللهجات الأخرى قبل ظهور الاسلام ، فإذا سمعت أن لهجة تميم كذا فاعلم أن الحق فى هذا أنها ليست لهجة تميم بل لهجة قريش فى لسان تميم وذيارهم ، أما لهجتها الأصلية فقد اندثرت نهائيا !! فما كتبته فى عدد أبريل سنة ١٩٤٧ وما بعده من موازنتك بين لهجة تميم وغيرها ونسبة هذه اللهجة إليهم فيه مبالغة !!
وكيف تنفس على قريش منزلتها الدينية مع أن العرب هى التى أسندت إليها الشرف طواعية ، لمرأت من منزلتها الاجتماعية والأدبية والاقتصادية !
فهذا يا (مزروع) نوع آخر من تعصبك لقومك التميميين !!

ردى

فشكرت للبحانة تفضله بالاطلاع على كلامى ، وأكدت له أن ما فيها نتاج مباحث واصلت فيها سواد الليل بيناض النهار سنين طويلة ، وطلبت إليه أن يسمع الرد الثانى المفصل فى عدد نال وهأنذا أفى بالعهد، إن العهد كان مستولا .

قرر البحتة في تاريخ اللغات أن من عوامل الصراع القوي تجاوز شعبين مختلفي اللغة ، وفي هذه الحالة لا بد أن يتغلب الشعب القوي على الضعيف ، سواء أكانت قوة العدد ، أم قوة الحضارة ، أم النفوذ والجاه ، أم البأس والبطش ؛ ولا يتم النصر غالبا إلا بعد أمد طويل يصل أحيانا إلى أربعة قرون وهذا في الفتح الحربية ، أما في غيرها فهو يمتد إلى أكثر قد يتناول إلى عشرة قرون .

وقريش كانت أقل عددا من تميم ، ولكنها عرفت كيف تستغل فرصة واتتها فسمعت للتغلب على منافستها الكبيرة (تميم) أما حين فقد كان القضاء عليها قد تم من قبل بأمد بعيد .

ولم تغلب (قريش) على من سواها حربيا لأنهم كانوا أميل القبائل العربية إلى المسالمة لانصرافهم إلى التجارة ورخاوة عيشهم ، فلم تكن الفتح أيضا هي السبب في تغلب لهجتهم على من دونهم ، وهذا يستلزم ألا تقل مدة السيطرة عن ستة قرون على أقل تقديرو حتى تستطيع لهجتهم أن تمتص لهجات القبائل الأخرى .

وقريش بالإجماع لم تكن لها السيطرة على القبائل العربية إلا قرنين قبل الإسلام ، يضم إلى هذا أن الباحثين قرروا لتغلب اللغة نفسها على أخرى بدون حرب أن يتساوى الشعبان أو القبيلتان في الهمجية أو المدنية ولكن يزيد تعداد أحدهما عن تعداد الآخر زيادة كبرى .

و (قريش) لم تفز بتحقيق شرط واحد من هذه الشروط :

فهي لم تغلب على إحدى القبائل العربية حربيا فضلا عن بقية القبائل ، ولم يزد تعدادها على تعداد تميم أو ربيعة أو قيس عيلان بل قل بمراحل ، وهذا كاف لنقض دعوى القائلين بفناء اللهجات العربية كلها في لهجة قريش ! وقد يحلو لمترض أن يقول :

كان مقتضى هذا ألا تسكون اللهجة السائدة عند ظهور الإسلام (لهجتها) بل لهجة تميم مثلا أو ربيعة ؛ وألا يقول العلماء : إن القرآن نزل بلسانها !!

والواقع يخالف هذين ١١

والرد سهل ؛ لأن لهجة (بنى فهر) قد استندت إلى أساس متين من اللهجات المضرية لا يقل عن ٣٠٪ من اللهجة المنسوبة إليها ؛ ولأن قريشا كان لها منزلة أديبة واجتماعية واقتصادية لا بأس بها ، وفي خلال القرنين اللذين رسخ فيهما نفوذ قريش وضعت من المصطلحات التجارية والدينية مفردات وتراكيب بلغت نسبتها نحو ٣٠٪ أيضا وضمت إلى هذين العديدين نحو ٢٠٪ من لهجة (قومي بنى تميم) غرما قريش الذين كانوا المشرفين على مناسك الحج قبلها بعددهم وبأسهم وقضاتهم وحكائهم .

ثم ضمت إليها ١٠٪ أيضا مما اقتبسوه من لهجات القبائل الأخرى بما خف وقعه ، ولأن لفظه ، وسهل أسلوبه ١١ وبذلك كملت تلك اللهجة القرشية

وزاد من قيمة الـ ٣٠٪ التي ابتكرها القرشيون فوق ما ورثوه عن آبائهم المضريين أنهم أشرفوا على عمليتي الاختيار والمزج ، فوق ما قدمنا من نفوذهم ، وفوق أن حسن طالعهم شرفهم بسيد الخلق ، وأن الخلفاء والولاة والقواد الأمويين والعباسيين كانوا من قريش ، ودونت اللغة في عهدهم وسجلت المآثر بإشارتهم ١١

فليس صحيحا بعد هذا ما ظنه بعض الناصريين من ذوبان اللهجات العربية كلها في اللهجة القرشية ، إذ هذه الكلمة تجن على الحق والتاريخ ومجد أرومتي .

(٣) ولم يكن الفرق بين لهجة وأخرى إلا ما نشعر به من الفرق بين لغة المصريين في مصر العليا وأسفل الأرض - الوجه البحري - أو على الأكثر بين لهجة المصريين ولهجة الشوام لا الذي تعرفه بين اللغة الألمانية والسويسرية حيث تتكلم بالألمانية من أهل (سويسرة) نحو ٧٠٪ على الرغم من الصراع الدائم بين الألمانية والفرنسية في سويسرا ، ذلك الصراع الذي بدأ من عهد سهيق

بين الفرنسية والسلتية :

ومثل ذلك الصراع بين اللغة الفرنسية واللسان السلتى الذى يتفاهم به سكان مقاطعة (البريتون) غرب فرنسا ، فلا يزال كثير من شيوخ هذه المقاطعة الآن يتحدثون به .

بين السلتية والانجليزية :

بل إن دهشتنا لتظهر أوضح إذا علمنا أن هذه اللهجة - السلتية - ما برحت لغة تفاهم بين العامة من الأيرلنديين عصرنا هذا مع أن تغلب الانجليز عليها مضى عليه نحو تسعة قرون على الرغم من الحروب المستعرة بين الفريقين ، والقلة المتواضعة التى عليها (الأيرلنديون)

(٦) كيف استولى القرشيون على مناسك الحج :

وأما أن مناسك الحج أسفدت الى قريش طواعية واختيارا فهذا أيضا ليس بصحيح وإلى القراء بيان ذلك :

من يراجع (مجمع الأمثال للبيداني (ص ١٩٨ - ١٠٠) يطلع على المثل : (أحق من أبي غبشان) وكان من حديثه أن (خزاعة) حدث فيها وباء الرعاف بمكة - وكانوا ولاية السكعبة - فخرجوا منها ونزلوا (الظهران) فرفع عنهم الوباء ، وكان منهم رجل يقال له (حليل بن خشية) وكان زعيم خدم البيت الحرام ، وله بنت يقال لها (حبي) وهى امرأة قصي بن كلاب ، فأت حليل ، وكان أوصى ابنته (حبي) بالاشراف على (الحجابة) وأشرك معها (أبا غبشان) الملكاني ، فلما رأى قصي أن خليلامات ، وبنوه غيب ، والمفتاح فى يد امرأته طلب إليها أن تدفع المفتاح إلى ابنها (عبد الدارين قصي) وحمل بنه على ذلك فقال : (اطلبوا إلى أمكم حجابة جدكم) - وهو حليل - ولم يزل بها حتى سلمت له بذلك وقالت : كيف أصنع بأبي غبشان !! وهو وصى معي !! فقال قصي : أنا أكفيك أمره !!

تدير المؤامرة :

فما زال يتحين الفرص حتى اجتمع بأبي غبشان في شرب بالطائف ،
 (نخدهه) قصي عن (مفاتيح الكعبة) بان أسكره !! ثم اشترى المفاتيح منه
 بزق خمر !! وهو في سكرته !! وأشهد عليه !! ، ودفع المفتاح إلى ابنه عبد
 الدار بن قصي !! وطيره إلى مكة !! فلما أشرف عبد الدار على دور مكة رفع
 عقيرته قائلاً :

معاشر قريش . هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل ، قد ردها الله عليكم
 (من غير غدر ولا ظلم) !!

بعد أن راحت السكره وجاءت الفكرة :

بعدها أفاق (أبو غبشان) من سكره أندم من الكسعي !! فضرب الناس
 به المثل (أحمق من أبي غبشان) و (أندم من أبي غبشان) و (أخسر صفقة من
 أبي غبشان) فذهبت الكلمات كلها أمثالا !! وأكثر الشعراء فيه القول ،
 فقال بعضهم :

إذا نغرت (خزاعة) من قديم وجدنا نغرها شرب الخمر
 وبيعا (كعبة الرحمن) حقا بزق !! بش مفتخر الفخور !!
 وقال آخر :

(أبو غبشان) أظلم (من قصي) وأظلم من (بني فهر) (خزاعة)
 فلا تلحوا قصيا في ثراه ولوموا شيخكم أن كان باعه !!

وللتأكد من هذا أرجو الرجوع إلى الأمهات من الكتب كالقاموس
 المحيط ، ونهاية الأرب والأغانى . . . فذلك أمر يعرفه المؤرخون والأدباء جيدا .
 وفي هذا ما يدل على أن العرب لم يكن لها يد في تولي قريش أمر الكعبة
 ولم يتمكن قصي من مفاتيح الكعبة إلا بهذه السبيل !! ، وكان القرشيون
 قبل ذلك أولى تجارة بين اليمن والشام ، وذوى مركز مالي ؛ فضم الشرف
 إليهم بسدانة البيت ميزهم ميزة أخرى ، فأخذوا يعضون عليها بالنواجذ

وجادوا بدمائهم في سبيل المحافظة عليها . وما زالوا على ذلك حتى أشرق عليهم سيد الرسل بعد أن ثبتت أقدامهم ، وطارصيتهم ، وأثروا إثراء فاحشا وتزلف اليهم كثير من القبائل ، فإذا ضم إلى هذا قلة تلك المدّة بالنسبة لما قدمنا ، تبين لنا مبلغ المبالغة في مركز اللهجة القرشية .

وأرجو بعد هذا أن أكون قد شفقت صدر الحق ، وأوضحت حقيقة طمسها كالفداء ومر العشى . وأعطيت ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، في هذا المجال الذي زلقت فيه مباحث المستشرقين وبعض الشرقيين من علمائنا قديما وحديثا ، وبين كل أولئك يظهر (فضل قومي) وجهادهم في رفع شأن العرب ولغتهم من قبل أن تخلق قريش . والله الأمر من قبل ومن بعد .

عبد العزيز مزروع الأزهرى

المدرس بالقبّة الثانويّة

أبو يوسف وكتاب الخراج

للمستأذنه محمد بن محمد بن مروى

مدرس بكلية دار العلوم

بجامعة فؤاد الأول

- ٢ -

كتاب الخراج

هو الأثر العلى الوحيد الذى بقى من مؤلفات هذا العالم الجليل ، وأنهم
ليذكرون له مؤلفات أخرى ، فى الفقه وأصول الفقه ، أورد أسماءها ابن
النديم ، ولكنهم لم تصل إلينا ، أما آراؤه فى المسائل الدينية ، فقد نقلها عنه
تلاميذه ولا سيما محمد بن الحسن الشيبانى فيما ألفه من كتب .

وكتاب الخراج الذى بين أيدينا أثر جليل ، يدل على ما كان لهذا العالم
من طول باع ، وسعه اطلاع ، وحسن تصريف للأموال وعمق ونفاذ
يستبطن بهما حكمه التشريعى حتى يصل إلى ما يراه الرأى القائب السديد .

ولقد أثر هذا الكتاب أثرا عميقا فى نفسى ، إذ رأيت فيه صورة الرجل
الهادى ، والمصلح الواسع الفكر والفقير المستنير ، وهو إلى جانب ذلك
كلمة معتز بعلمه ، واثق من أن حقه أن يبين للناس الحق والصواب ، ومن
حقة عليهم أن يصغوا له ويطيعوا .

رأيت فى الكتاب صورة الرجل الصادق فى نصحه ، والذى لا يفضى
المين على عيب يراه ، بل هو صريح يذكر للرشد فى صراحة ما يراه من العيب
والتقصير فى دولته ، يقول له مرة ، وهذا الذى بلغنى أن ولاتك يفعلونه
ليس من الحكم والحدود فى شيء ويقول مرة أخرى عند ذكر ما يجب أن

يقدمه بيت المال للمسجونين من الطعام والكسوة: إن هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطئوا، وقضى الله عليهم ما هم فيه، فحبسوا، يخرجون في السلاسل يتصدقون، وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسرى المسلمين الذين في أيديهم، فكيف ينبغي أن يفعل هذا بأهل الاسلام، وإنما صار وإلى الخروج في السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع، وفي مواضع أخرى ينبئه بما يسمعه ويعلمه من أخبار الولاية، فينتقد وينقد، يقول للرشيده منتقدا طول حبس المتهم بدون تحقيق في أمره: وإنما يكسر أهل الحبس لقلة النظر في أمرهم وإنما هو حبس وليس فيه نظر، فرولاتك جميعا في النظر في أمر أهل الحبس في كل يوم، فمن كان عليه أدب وأدب وأطلق، ومن لم تكن له قضية خلى عنه كما بلغني أن ولاتك يضربون، وإن رسول الله ﷺ قد نهى عن ضرب المصلين. وقد صب جام غضبه على المحسوبة، وعدم التدقيق في اختيار العمال الصالحين، يقول للرشيده: إذا لم يكن (أى العامل) عدلا ثقة أميلا فلا يؤتمن على الأموال، وإنى قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج، إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياما ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم، وإنه قد بلغني أنه قد يكون في حاشية العامل والوالى جماعة: منهم من لهم به حرمة، ومنهم من له إليه وسيلة، ليسوا بأبرار ولا صالحين، يستعين بهم، ويوجههم في أعماله، يقتضى بذلك الذمات فلا يحفظون ما يوكون بحفظه، ولا ينصفون من يعاملون، وإنما مذهبيهم أخذ شيء من الخراج أو من أموال الرعية، ثم إنهم يأخذون ذلك فيما يبلغني بالفسف والظلم والتعدى، ومن أجل هذا ألح أبو يوسف في كثير من فصوله في وجوب التدقيق في اختيار العامل، علما منه بأن العبرة ليست في القانون وإنما في منفذ هذا القانون.

وفي الكتاب صورة كاملة للعامل والوالى الكاملين، بل إن أبابوسف لا يمكنه بكما لهما فقد تفرهما النفس الأمانة بالسوء، فطلب إلى الرشيده أن

تكون له عيون على عماله وولاته ، ينبئونه بكل انحراف يصدر منهم فيعاقبهم عليه أشد العقاب ويكون حراما استعمالهم بعد ، بل لا يكتفى أبو يوسف بذلك . بل يطلب من الرشيد أن يجلس للمظالم ، ويستمع إلى شكوى الشاكين من رعيته ، فيقول له : فلو تقربت إلى الله عز وجل يا أمير المؤمنين بالجلوس لمظالم رعيته في الشهر أو الشهرين مجلسا واحدا ، تسمع فيه من المظلوم ، وتتكبر على الظالم رجوت ألا تكون ممن احتجب عن حوائج رعيته ، ولعلك لا تجلس إلا مجلسا أو مجلسين حتى يصير ذلك في الأمصار والمدن ، فيخاف الظالم وقوفك على ظله فلا يجترئ على الظلم ، ويأمل الضعيف المقهور جلوسك ونظرك في أمره ، فيقوى قلبه ويكثر دعاؤه . . . مع أنه متى علم العمال والولاة أنك تجلس للنظر في أمور الناس يوما في السنة ، ليس يوما في الشهر تناهوا بإذن الله عن الظلم وأنصفوا من أنفسهم .

كما رأيت في هذا الكتاب صورة صادقة للقاضي الرقيق بالرعية المفضل للعفو على الانتقام ، يقول : فلا يضربن رجل في ذراهم خراج ، ولا يقام على رجله ، فإنه بلغنى أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ، ويضربونهم الضرب الشديد ويلقون عليهم الجرار ، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله شنيع في الاسلام . كما أوصى أن يعامل أهل الذمة المعاملة الكريمة ، وعنده أن الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة ، هذا مع عدم الاخلال بالحزم في توقيع العقوبة إذا فرضت ، وعدم محاباه أحد من حدود الله ، وعدم الاصغاء إلى شفيع فيه .

وبعد فموضوع هذا الكتاب ؟ وما اللحظة التي انتجها صاحبه في تأليفه ؟ وما رأينا في هذه اللحظة ؟ وما أسلوب الكتاب ولغته ؟ وهل لهذا الكتاب أهمية في عصرنا الحاضر ؟ وهل يدل الكتاب على أن أبا يوسف مجتهد مطلق ؟ أسئلة نجيب عنها لتتضح للكتاب صورته صادقة ووزنه يميزان عادل .

موضوع الكتاب

أما موضوع الكتاب الأساسي ، فهو بيان الأموال التي من حق الامام أخذها من رعيته ، ولما كانت هذه الرعية مختلفة : منها المسلم ومنها النصراني واليهودي ، ومنها المجوسى ، اختلفت الضريبة باختلاف هذه الاصناف ، كما اختلفت باختلاف نوع الأرض ، فالمفتوح عنوة له حكم ، والمفتوح صلحا له حكم آخر ، وأرض العرب الخاص لها حكمها الخاص بها ، ولقد قصر حديثه على قسم المملكة الشرقى ، فتحدث عن الضرائب التي تفرض على بلاد العرب والشام والجزيرة والسواد والبصرة وخراسان ولم يتحدث عن القسم الغربى للملكة من مصر إلى المحيط الاطلسى ، ولعل الضرائب على هذه البلاد كانت مقررة مفروغا منها ، فلم يحتاج أبو يوسف إلى الحديث عنها ومن موضوع الكتاب أيضا الزكاة التي يأخذها الامام من الرعية وبعض التصرفات المالية التي يقوم بها الامام من البيع والاقطاع والتأجير فى أملاك الدولة ثم بيان أين تنفق أصول الضرائب والزكاة .

وهذا هو موضوع الكتاب الاساسى ، ولعل كلية الخراج التي وضعت عنوانا لهذا الكتاب يراد بها ما نطلق عليه اليوم إيراد الدولة ، أو لعله سماه الخراج من إطلاق الخاص على العالم ، إذا الخراج هو ما يأخذه الامام من العجم الذين غلبهم الاسلام ، وترك أرضهم فى أيديهم ، ولكن الكتاب لم يقتصر على ذلك ، بل تحدث عما يأخذه الامام من العجم والعرب مسلمين وغير مسلمين وما يفرض على الارض والتجارة .

هذا - كما قلت - هو الموضوع الأساسي للكتاب ، ولكن تبع هذا الموضوع موضوع آخر ، استغرق من المؤلف جهدا كبيرا ، ذلك انه بينما كان يتحدث عن أن بيت المال يجب أن يتفق منه على المحبوسين انتقل إلى بيان العقوبات التي توقع على هؤلاء المحبوسين فأفاض فى بيان الحدود ، وأنواعها ، وكيف ، وأين ، ومتى توقع ؟

ولما كان من الضرائب التي تجب ضريبة الجزية ، تحدث أبو يوسف عن لباس أهل الذمة ، وزيمهم ، وكنائسهم ، ويصمهم ، وصلبانهم ، وعن المجوس وعبدة الأوثان وأهل الردة وحكم المرتد عن الإسلام ، ومن مر بمسالح المسلمين من أهل الحرب - والجواسيس وقتال أهل الشرك ، وكيف يدعون إلى الإسلام .

وفي الكتاب فصل تاريخي محصن يذكر فيه أبو يوسف ما كان عمر فرضه لأصحاب رسول الله ، وليس لهذا الفصل من أثر عملي في عهد الرشيد وفيه فصول تاريخية لها أثر عملي تحدث فيها عن فتح الشام والعراق وخراسان ، لأنه يترتب على هذا الفتح مقدار الضريبة المفروضة على الأرض ، وتحدث فيها أيضا عما للذميين من حقوق صولحوا عليها وفي هذه الفصول تبدو ثقافة أبو يوسف التاريخية التي تحدثنا عنها ولم آخذ على أبو يوسف في تلك فصول إلا قصتين رواهما لا أدري كيف اتسع عقله لاستساغتهما أما الأولى فتلك التي يتحدث فيها عن فتح الحيرة قال أبو يوسف : فنزل إليه (أي إلى خالد بن الوليد) عبد المسيح ابن حيان بن بقله ، وخرج إليه إياس بن قبيصة الطائي وكان والي الحيرة من قبل كسرى فأقوا ، خالدا فقال لهم : ادعوكم إلى الله ، وإلى الإسلام ، فإن أنتم فعلتم فلکم ما للمسلمين ، وعليكم ما عليهم ، وإن أبيتم فأعطوا الجزية ، فإن أبيتم فقد أتيتكم بقوم أحرص على الموت منكم على الحياة ، قال . وفي يد ابن بقله السم ، قال : فقال له خالد : ما هذا ؟ قال : هذا السم ، فإن أنت أعطيتني ما أريده ، وإلا شربته فلا أرجع إلى قومي بما لا يحبون ، قال : فأخذه خالد من يده ، وقال باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء ، في الأرض ولا في السماء ، ثم ابتلعه ، قال : فرجع إلى قومه ، وقال لهم . جئتكم من عند قوم لا يعمل فيهم السم .

هذه قصة ظاهرة البطلان ، وهي خرافية ، فليس خالد من البلاسة بهذا الحد ، ولا نجد في الكتاب الذي كتب بين خالد وإياس .

ذكرى لابن بقليلة.

والقصة الثانية يرويها حين ذكر أن المجوس يدفعون الجزية ، وليسوا بأهل كتاب ، قال : حدثنا قطن بن خليفة أن فروة بن نوفل الأشجعي ، قال : إن هذا الأمر عظيم يؤخذ من المجوس الجزية ، وليسوا بأهل كتاب ، قال فقام إليه المستورد بن الأحنف ، فقال : طعنت على رسول الله ﷺ ، فقتل وإلا قتلتك والله . وقال : قد أخذ رسول الله ﷺ من مجوسى أهل هجر الجزية ، قال : فارتفعنا إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فقال : سأحدثكما بحديث ترضيانه جميعا من المجوس : إن المجوس كانوا أمة لهم كتاب يقرمونه . وأن منكا لهم شرب حتى سكر ، فأخذ بيد أخته ، فأخرجها من القرية ، واتبعه أربعة رهط ، فوقع عليها وهم ينظرون إليه ، فلما أفق من سكره ، قالت له أخته إنك صنعت كذا وكذا ، وفلان وفلان وفلان وفلان ينظرون إليك . فقال : ما علمت بذلك ، فقالت : فإنك مقتول ولا نجاة لك إلا أن تطيعنى ، قال فأتى أطيعك ، قالت : فاجعل هذا دينا ، وقل هذا دين آدم وقل : حواء من آدم ، وادع الناس إليه ، واعرضهم على السيف ، فمن تابعت فدعه ، ومن أبى فاقتله ، ففعل فلم يتلبعه أحد ، فقتلهم يومئذ حتى الليل ، فقالت له : إني أرى الناس قد اجترأوا على السيف ، وهم على النار لسكع ، فأوقد لهم نارا ثم اعرضهم عليها ففعل فهاب الناس النار فتابعوه ، قال على ابن أبي طالب رضى الله تعالى عنه : فأخذ رسول الله ﷺ الخراج لأجل كتابهم ، وحرّم منا كحمتهم وذباحتهم لشركهم .

هذه قصة واضحة البطلان كذلك ، وقد تكون فكرتها الأساسية من أن للمشركين فى أول أمرهم كتابات صحيحة ، ولكن القصة على هذه الصورة مما لا يقبله العقل ، ولعل هذا كان من الأسباب التي جعلت بعض العلماء لا يروون عنه ولا يثقون بحديثه .

تحميل الكتاب :

بدأ أبو يوسف كتابه بمقدمة هي رسالة موجهة إلى أمير المؤمنين هرون الرشيد، صدرها بالدعاء له، وذكر فيها أنه قام بالتأليف، إجابة لرغبة الأمير الذي سأله وضع كتاب جامع في الحجاج، ووجه بعدئذ خطابه إلى الرشيد ينصحه في رفق، ويذكره بواجبه نحو رعيته، وقد أطل في هذا التذكير، مصوراً يوم القيامة وما فيه، وأنه قريب مهما بعد أجله، ويقول في ذلك: إنما هو اختلاف الليل والنهار بيليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتیان بكل موعود ويحزى الله كل نفس بما كسبت، إن الله سريع الحساب، فالله الله، فإن البقاء قليل، والخطب خطير، والذنيا هالكه وهالك من فيها، والآخرة هي دار القرار، فلاتن الله غداً وأنت سالك سبيل المعتدين فإن ديان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم، ولا يدينهم بمنازلهم. وانتهى من ذلك بأن أورد أحاديث عن الرسول يرغب بها الرشيد في عمل الخير، ويحضه على أداء الواجب لنفسه، ولرعيته، حتى إذا أورد من ذلك ما شاء أن يورده عاد إلى سيرة السلف الصالح فروى من كلامهم وأعمالهم ما يجب أن يكون نموذجاً للامام العادل: نقل عن أبي بكر وروى عن عمر وعثمان وعلى ما يضح أن يتخذ الرشيد مثاله في معاملة رعيته، وكانت سيرة عمر بن عبد العزيز وردا صافيا يستقي منه المثل والنماذج بما يدل على أن سيرة هذا الامام العادل كانت موضع إجلال أصدقائه وأعداء أسرته من العباسيين، وكل ما أورده من تلك السيرة يرمى إلى أن الخليفة مسئول عن هذه الرعية التي وكل إليه أمرها، وأن العناية بأمرها والسهر على شئونها أفضل عند الله من الصلاة والصيام؛ وأن الواجب على الخليفة ألا يقتر بمظاهر هذه الحياة، بل يذكر أن الموت دائماً بالمرصاد.

وقد كان أبو يوسف صريحاً حينما قدم كتابه إلى الرشيد، فلم يلبس ثوب التواضع الوهمي، ولكنه قدمه إليه بلغة الأستاذ المعلم الذي يلقى على تلميذه درسا، ويطلبه بعد ذلك باستذكاره وحفظه؛ فهو يقول له مخاطباً بلهجة

الأفراد متجنباً ميم الجمع ، وضمير الغيبة معا : وقد كتبت لك ما أمرت به ، وشرحته لك ، وبينته ، وتفقهه ، وتدبره ، وردد قراءته حتى تحفظه .

ثم انتقل المؤلف بعد ذلك إلى غرضه من الكتاب ، جاعلاً لكل موضوع فصلاً خاصاً به فلم يترك الموضوعات يختلط بعضها ببعض ، ويستطرد من موضوع إلى آخر ، كما كان يفعل بعض مؤلفي تلك العصور . غير أن لي نقداً على ترتيب فصوله ، فأرى أن بعض هذه الفصول كان من الواجب أن يتقدم على بعض ، إذ نراه قد تحدث مثلاً ، عن سواد العراق وكيف فتح وعن أرض الشام والجزيرة ، ثم أتى بفصل بين فيه كيف كان فرض عمر لأصحاب رسول الله ﷺ ، وكيف خالف أبا بكر في هذا الفرض ، ثم عاد إلى بيان ما ينبغي أن يملك به في سواد العراق . وتحدث مرة أخرى عن حكم المرتدين إذا حاربوا ، وانتقل إلى فصول أخرى طويلة حتى إذا قارب الكتاب نهايته عاد فتحدث في فصل عن حكم المرتد في الإسلام ، وبعد أن تحدث طويلاً عن الأراضى التي يؤخذ منها الخراج والأراضى التي يؤخذ منها العشر ، عاد فتحدث في فصل عن حد أرض العشر من أرض الخراج ، مع أن موضع هذا الفصل يجب أن يكون في أول الكتاب ، ولو شئت أن أمضى في نقد ترتيبه للفصول لطال بي القول ، ومن الممكن أننا إذا عدلنا ترتيب الفصول ، فقدمنا ما يستحق التقديم ، وأخرنا ما يستحق التأخر لاسار الكتاب على نهج واضح من المنطق .

أما خطته في كل فصل تقريباً فإن يضع في رأس الفصل موضوعه ، على هيئة سؤال وجهه إليه الرشيد ، ثم يجيب عن هذا السؤال ثم يذكر الأدلة التي استقى منها هذا الجواب ؛ وقد يذكر المذاهب المختلفة عارضاً أدلتها مبدياً ما رآه هو أولى بالاتباع ، أو مخيراً الرشيد في اتباع أى الرايين شاء .

والفصول كذلك ينقصها الترتيب الدقيق الذى تتطلبه من التأليف في عصورنا الحاضرة ، وبعض الفصول التاريخية معرض غير منتظم للروايات المختلفة .

لغة الكتاب

لغة أن يوسف في الكتاب مختلفة ، فهو يتأق فيها حيناً فيرقى ، ويرتفع حين يريد التأثير في نفس سامعه ، ليعمل برأيه ، ولغته حينئذ لغة الأديب المتفنن يختار اللفظ الجيد والأسلوب القوي . اقرأ له مثل قوله : ورأيت أبقى الله أمير المؤمنين أن يتخذ قوماً من أهل الصلاح والدين والأمانة ، فتوليهم الخراج ، ومن وليت منهم فليكن فقيها عالماً مشاور الأهل الرأي عفيفاً لا يبطلع الناس منه على عورة ، ولا يخاف في الله لومة لائم ، ما حفظ من حق وما أدى من أمانة احتسب به الجنة ، وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت . يجوز شهادته إن شهد ، ولا يخاف منه جور في حكم إن حكم ، فإنك إنما توليه جباية الأموال وأخذها من حلها ، وتجنب ما حرم منها يرفع من ذلك ما يشاء ، ويحتجن منه ما يشاء . وقد أسمعتكم كثيراً من هذا اللغة الراقية في كثير من المواضع .

وهو عندما يبين الأحكام سهل واضح دقيق لا يتأق ولا يطيل ولا يوجز يقول في حد أرض الخراج وأرض العشر : كل أرض أسلم أهلها عليها ، وهي من أرض للعرب أو أرض العجم فهي لهم ، وهي أرض عشر وأيما دار من دور الأعاجم قد ظهر عليها الإمام وتركها في أيدي أهلها فهي أرض خراج ، وهكذا كانت السهولة ديدنه عند بيان الأحكام .

كما نجد بعض ألفاظ فارسية في كتابه مثل الرستاق ، ومعناه طرف الإقليم والبريدات وهي مفاصل الماء .

أهمية الكتاب

وللكتاب أهمية كبرى في عصرنا الحاضر ، لأنه يعطينا صورة عن الضرائب التي كانت تجب في ذلك الحين ، ويعطينا صورة صادقة أيضاً عن الضرائب التي كانت تجب في عصر النبي ، والخلفاء الراشدين ، وكيف كان أهل الذمة يعاملون في تلك العصور ، فقيمة الكتاب من هذه الناحية تاريخية

محضة لأن نظامنا في الصرائب لم يعد ذلك النظام القديم الذي يفرق بين المسلم وغيره ويفرق بين أنواع الأرضين ، كما اختلفت المعاملة ، وأصبح الجميع أمام القانون سواء .

وللكتاب أهمية أخرى ، تلك هي ما حواه من الكتب والرسائل التي تبودلت بين الخلفاء والولاة والعمال ، فهو معين للمادة أدبية قيمة ، تتصل بحماية الضرائب ومعاملة أهل الذمة .

والكتاب معين لا ينضب أيضا للأحاديث والآثار التي ترتبط بموضوع الكتاب الذي تحدثنا عنه سابقا .

هل أبو يوسف مجتهد مطلق؟

المجتهد المطلق هو ذلك العالم الذي يرجع إلى الأدلة الأصلية يقتبس منها أحكامه ، والمجتهد المقيد هو العالم الذي يرجع إلى إمامه ويحتج له ويوجه أدلته ، فن أي النوعين كان أبو سيف ؟ إذا رجعنا إلى كتاب الخراج رأينا أبا يوسف يرجع إلى الأدلة الأصلية يأخذ منها ما يراه من الأحكام الشرعية فهو يذهب إلى القرآن وعمل الرسول وسنته وآثار السلف الصالح : يتخذ منها مصدر تشريعه ، ثم نراه يضع نفسه مع أبي حنيفة في منزلة واحدة ، ويذكر رأى أبي حنيفة ويتبعه برأيه هو ، وكثيرا ما خالف رأى أبي حنيفة ، وفي الكتاب نماذج كثيرة لتلك المخالفة ؛ قال أبو يوسف : وكان الفقيه المقدم أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقول في تقسيم الغنيمة بين الفارس والراجل : للرجل سهم وللفرس سهم ، وقال : لا أفضل بهيمة على رجل مسلم ، ويحتج بما حدثناه عن ذكر بيان بن الحارث عن المنذر بن أبي حنيفة الهمداني أن عاملا لعمر بن الخطاب رضی الله عنه قسم في بعض الغنائم ، للفرس سهما ، وللرجل سهم ، فرفع ذلك إلى عمر رضی الله عنه ، فسلمه وأجازته ، فكان أبو حنيفة يأخذ بهذا الحديث ، ويجعل للفرس سهما ، وللرجل سهما ، وما جاء من الأحاديث والآثار أن للفرس سهمين وللرجل سهما أكثر من ذلك وأوثق .

والعامة عليه ، ليس هذا على وجه التفضيل ، ولو كان على وجه التفضيل ما كان ينبغي أن يكون للفرس سهم وللرجل سهم ، لأنه قد سوى بهيمة برجل مسلم إنما هذا على أن يكون عدة الرجل أكثر من عدة الآخر ، وليرغب الناس في ارتباط الخيل في سبيل الله ، ألا ترى أن سهم الفرس إنما يرد على صاحب الفرس ، فإنه يكون للفرس دونه . ويقول في موضع آخر مخالفا لاستاذيه : أن حنيفة وابن أبي ليلى : وسألت يا أمير المؤمنين عما يخرج من البحر من الحلية وعبير ، فإن فيما يخرج من البحر من الحلية والعنبر الخمس ، فأما غيرها فلا شيء فيه ، وقد كان أبو حنيفة وابن أبي ليلى رحمهما الله يقولان . ليس في شيء من ذلك شيء ، لأنه بمنزلة السمك ، وأما أنا فإن أرى في ذلك الخمس وأربعة أحماسه لمن أخرجه لانا قد روينا فيه حديثا عن عمر رضي الله عنه ، ووافقه عليه عبد الله بن عباس فاتبعنا الأثر ، ولم نر خلافا .

ويقول في موضع آخر . فكان قول الحسن وعطاء أحسن عندي من قول أبي حنيفة ، وفي موضع آخر يقول : هذا لا يجوز في قول أبي حنيفة وقولي . وكل ما في للكتاب ينطق باعتداده أن يوسف بنفسه واستقلاله برأيه وكانت الأدلة التي يعود إليها القرآن الكريم وحديث الرسول وفعله والآثار المروية ، ولا سيما عن عمر . فقد كان معجبا به أيما إعجاب ، وفي بعض الأحيان كان يخالفه في فعله لا في جوهر فكرته ، والكتاب ينطق بأن أبا يوسف كان يتخذ كل ما ذكرناه وردا يستنبط منه أحكامه . أما شهرته بالقول بالرأي فمعناها - على ما أرى - أنه كان يفهم روح الأثر فيعمل بمقتضاه ، ولم يكن معناه أنه كان يرجع إلى رأيه قبل أن يرجع إلى الحديث والأثر .

وبرغم اعتداد أبي يوسف بآرائه اعترف بأن ما أشكل عليه اتخذ إمامه فيه أبا حنيفة ، وهكذا نستطيع أن نقول إن أبا يوسف مجتهد مطلق في غير مارآه مشكلا ، أما في المشكل فهو مقلد لأبي حنيفة . رحم الله هذا الامام الجليل .

مراجع البحث .

- ١ - وفیات الاعيان .
- ٢ - تاريخ القضاء في الاسلام .
- ٣ - تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان .
- ٤ - كتاب الاغانى .
- ٥ - كتاب الخراج .
- ٦ - حضارة الاسلام في دار السلام .
- ٧ - تاريخ بغداد .
- ٨ - المفهرست لابن النديم .

النحو بين الإلغاء والبقاء

للإستاذ أحمد محمد الحوفي

المدرس بكلية دار العلوم

بجامعة فؤاد الأول

(٦) لابد من دراسة النحو

أو خطر الدعوة إلى تقويضه

إذا كان النحو روح المبنى كما سبق ، ثم هو أساس التركيب ، فلا جرم تكون دراسته ضرورية ، والإلمام به ، من عدة الأديب والمتكلم الفصيح لأن اللغة قد صارت إلى أن تعلم بالدرس بعد أن كانت تعرف بالسابقة والمحاكاة .

وليست الدعوة إلى إلغائه إلا هدم ما للغة من قواعدها الوطيدة ، وهما لهذا الدين الذي ختم الله به الأديان للناس ، ثم تعفية على القرآن الكريم والحديث الشريف ، وما خلف السابقون واللاحقون من روائع الشعر والنثر والثقافة ، ولذا يقول ابن الأثير . « فوجب حينئذ معرفة النحو إذ كان ضابطا لمعاني الكلام ، حافظا له من الاختلاف ، (١) والتصريف شعبة من النحو وإن فصله بعضهم ، فلا بد من دراسته » وإذا لم يكن عارفا به لم تقسد عليه معاني كلامه ، وإنما تقسد عليه الأوضاع وإن كانت المعاني صحيحة . . ومن العجب أن يقال انه لا يحتاج إلى معرفة التصريف ، ألم تعلم أن نافع بن أبي نعيم وهو من أكبر القراء السبعة قدرا ، وأخفهم شأنًا قال في معاش معاش بالهمز ، ولم يعلم الأصل في ذلك ، فأخذ عليه ، وعيب من أجله ، ومن جملة

من عابه أبو عثمان المازني فقال في كتابه في التصريف . ه ان نافعالم يدر ما العربية ه (١)

وعلى فرض أنا نوافق على إلغاء الإعراب من اللغة فإذا نصنع في تراثنا الخالد ، ودستورنا الهادي وهو القرآن الكريم ؟ وكيف يقرأ ؟ وكيف يحفظ ؟ ثم ماموقفنا من الحديث الشريف وإنتاج السلف من فن وعلم وأدب ؟ أنقطع الصلة بيننا وبين هذا التراث الثمين وهو ينبوع الذي نستقي منه حميا العزة والمجد ؟ أم نحوله إلى لغة التسكين الجديدة ؟

ثم ماذا نصنع في الكلمات التي لا تسكن كالمثنى وجمع المذكر السالم وبعض المبتنيات ؟ انسكنها حتى في الوصل ؟

ثم ان اللغة المعربة هي اللغة التي تربط الأمة العربية ، وتسكفل التفاهم بين أقطارها المختلفة ؛ لأن لهجاتها العامية متباينة ، فلو ألغينا الإعراب ولجأنا إلى التسكين لقربت الفصحى من العامية ، ولنطقها كل أقليم بلهجتين فلا يتحقق التفاهم ، ولا يتحقق الاتصال ، ولقضيينا بذلك على الوحدة العربية المشوذة التي نجد جميعا في تقوية أو اصرها ، وهي ما زالت في المهد .

ولست اللغة العربية وحدها هي المختصة بالاعراب كما رأى بعض علمائها السابقين ، وكما يزعم بعض الدعاة إلى التسكين ، فالألمانية تشاركها وتزيد عليها أحيانا ، فإن لاعراب الأسماء عندنا ثلاثة أحوال : الرفع والنصب والجر ، أما الألمانية فلاعرابها أربعة أحوال : الرفع والنصب والجر بحرف الجر ، والجر بالاضافة .

والإعراب عندنا مقتصر على أكثر الأسماء والأفعال ، ولكنه في الألمانية يتجاوز ذلك إلى مايقابل الحروف والأسماء المبنية عندنا من أدوات التعريف والتنكير والأسماء الموصولة .

والأسماء في الألمانية تنقسم ثلاثة أقسام : مذكر ، ومؤنث ، وغير عاقل ولكل منها أداة تعريف . وهذه الأدوات تخضع لعوامل الإعراب

الأربعة السابقة . فقبل النطق بأى اسم من الأسماء المعرفة يجب أن تختار له أداة تعريف من بين اثنتى عشرة أداة هي حاصل ضرب أنواع الاسماء الثلاثة فى أحوال الاعراب الأربعة . وكذلك الشأن فى أدوات التنكير (١) على انه كان فى البابلية والعبرية والسريانية ، ولم يكن تضامه ، ولم يبق منه شىء تقريبا كما كان فى اللاتينية . ولكن انقرض فى اللغات المتشعبة منها ، وقد كان معظم هذه القواعد كبير الفائدة فى بيان وظيفة الكلمات وتحديد مدلولاتها وتعيين العلاقات التى تربط عناصر العبارة بعضها ببعض وقد أدى انقراض هذه القواعد فى اللهجات المتشعبة عن اللاتينية إلى كثير من اللبس والاضطراب ، (٢) ثم لماذا لا يدعو الفرنسيون مثلا إلى إلغاء قواعدهم وهى متشعبة كقواعد اللغة العربية ، على أنهم حراس على تيسير لغتهم وذيوها فى العالم كله ؟

(١) من مقال للاستاذ مهدي علام فى صحيفة دار العلوم

(٢) دام اللغة للدكتور على عبد الواحد ٣٠٢

(ثالثاً)

التيسير لا الإلغاء

حير من الدعوة إلى إلغاء النحو أن ندعو إلى تيسيره .
بل الدعوة إلى إلغائه دعوة فاشلة باطلة ، لا يصح أن نصيخ إليها ،
ولا نعمل بها .

ويظهر أن تيسير النحو قد شغل بعض الباحثين قديماً ، فإن ابن خلدون
يقول : « ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد ، واستقرينا أحكامه
نمناص عن الحركات الاعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه

تكون لها قوانين تخصها . ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول
في لغة مضر ، فليست اللغات وملكاتنا مجانا ، ولقد كان اللسان المضرى مع
اللسان الحميرى بهذه المثابة . وتغير عند مضر كثير من موضوعات اللسان
الحميرى وتصاريف كلماته ، تشهد بذلك الأنتقال الموجودة لدينا خلافا لمن
يحملة التصور على أنها لغة واحدة . . . ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة
مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها ، (١)

ثم هي مشكلة تتجدد في كل عصر ، ويزيدها هذا التباين بين لغة المعمل
والمصنع ، والسوق ، والشارع ، والمنزل وبين لغة المدرس - أحيانا -
والمحاضرة والشعر والنثر والخطبة ، حتى ليصح القول إن اللغة الفصحى
ليست صورة صادقة لشعور الجمهرة من العرب فنحن نضطرب بين لغتين .

إحداهما لغة الحياة اليومية أى لغة الآلام والآمال والأحلام والرضى
والسخط والفرح والحزن لجمهرة الشعب وهى التى نتعلها كما يقول (داتى)
بمحاكاة أظآربنا ومربياتنا من غير حاجة إلى ضابط أو قاعدة ، والآخري
لغة الإنشاء أى اللحظات القليلة فى حياة الفئة المحدودة من الأدباء
ومدرسى اللغة . وهى مع ذلك لغة الأدب العربى فى عصوره الزاهرة ، ولغة
الاسلام فى كتابه وسنته وتشريعه . ولغة الآمال والآلام المشتركة بين
الأمم العربية .

فماذا نقترح لتيسير الاعراب وتسهيل تعلم اللغة الفصيحة ؟

(١) قصر الاعراب على لغة الأدب والعلم وما سجا كلهما

لا أجد بدا من ترك الاعراب فى لغة الحديث اليومى المعتاد لانى أرى
من العبث أن أدعو إلى الاستمك به فى لغة الغرض منها تحقيق المنافع السريعة
والنفاهم العاجل الميسر وليس الغرض منها الافتتان أو التعبير الممتاز .
وما من إنسان يستطيع أن يدعى أن لغة الشعر والكتابة فى الانجليزية
والفرنسية والألمانية مثلا هى لغة المحادثة والشفافة والخطاب المعتاد ، إذ
بينهما من الفروق ما يجعل هذه من تلك شبيهة بالعامية من الفصحى عندنا
وإن كانت الهوة عندنا أوسع أطول عهدنا بالجهل والركود ولطول ما حوربت
الفصحى فى مصر والشرق بالتركية آنا والفرنسية والانجليزية آنا . فلغة
التخاطب بين الفلاحين الفرنسيين أو الانجليز أو الألمان تختلف كثير ا عن
اللغة الأدبية لغة الكتابة والإنشاء ويظهر هذا الاختلاف فى نطق الكلمات
واستعمالها وتطبيق القواعد النحوية ، وإننى لأذكر ما سمعته مرة من فلاح
إنجليزى يعلم ابنه فسألته . ماذا يعمل معه ! فقال .

I learn'm يريد I teach him فاستعمل learn بدل teach ، وكذلك
يستعمل الانجليزى العادى فى لغة حديثه عبارة I havenotgotnotbing يريد

Ihavenotbing

ويظهر الخطأ النحوى متفشيا بين الفلاحين والعمال الألمان لأن النحو

الالماني يشبه في صعوبته النحو العربي ولذلك قل أن يستعمل العامل الالماني في لغة التخاطب الاضافة الصحيحة Genativ أو يحافظ على عمل الحروف كحرف الجر مثلاً أو يعرف استعمالها الصحيح . فهو يستعمل nach بدلاً من Uح (١) على أن عاميتنا آخذة الآن في القرب من الفصحى بعد انتشار التعليم ووسائل الثقافة وبقظة الروح القوي حتى ليصح القول إنها قد ارتقت منذ عشرين عاماً رقياً يبشر بأنها بعد قرن واحد ستكون قريبة من الفصحى قرب لغة الحديث الانجليزية من الانجليزية المكتوبة .

ولكن لست أدعى أنها ستكون معربة يوماً ما ، لما في الاعراب من جهد ، ولحاجة المتكلم به إلى روية ومرانة لا يكتسبهما إلا المختصون في دراسة هذه اللغة ، المدربون على التكلم بها ، أو الناشئون في بيئة عربية خالصة . ولأن الناس في محادثاتهم يختصرون الطريق ، ويميلون إلى التسهيل والتسمح .

ومن اتفاق الخواطر أن القلقشندى قد دعا إلى مثل هذا الرأي ، فقال . «واعلم أن اللحن قد فشا في الناس ، والألسنة قد تغيرت ، حتى صار التكلم بالاعراب عيباً ، والنطق بالكلام الفصيح عيباً ، قلت . والذي يفتضيه حال الزمان ، والجرى على منهاج الناس أن يحافظ على الاعراب في القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، وفي الشعر ، والكلام المسجوع ، وما يدون من الكلام ويكتب من المراسلات ونحوها ، ويفتقر اللحن في الكلام ، الشائع بين الناس ، الدائر على ألسنتهم بما يتداولونه بينهم ، ويتحاورون به في مخاطباتهم ، وعلى ذلك جرت سنة الناس في الكلام مذ فسدت الألسنة ، وتغيرت اللغة ، (٢) ويعضدني في هذا الرأي أن اللحن في لغة المشافهة قد وقع قديماً ، واللغة أقرب إلى السلامة ، وأبعد من العجمة ، وإذا كان بعض النحاة قد تأول بعض ما وقع فإن هذا لا يخرجهم عن أنه مخالفة للتعرف من أوضاع اللغة بين جمهور العرب ، ويحسن أن أورد هنا بعض الأمثلة من اللحن الذي طرأ على لغة الخطاب في صدر الاسلام ، وفي العصر الأهوى ، والقبائلي الأول ،

(١) من محاضرة الاستاذ عبد العزيز أمين (صحيفة دار العلوم)

(٢) ضبح الالهى - ص ١٠٤ ص ١٧٤

يستين منها أن بعض البلغاء ، وبعض العرب قد لحنوا .

(ا) ظهر قليل من اللحن في زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد ورد أنه من يقوم يرمون ، فاستقبح رميمهم ، فقال . ما أسوأ رميمكم ! فقالوا : نحن قوم متعلمين ، فقال عمر . لحنكم أشد على من فساد رميمكم .

(ب) ورد أن كاتباً لأبي موسى الأشعري كتب إلى عمر . « من أبو موسى الأشعري ، فسكتب عمر إلى أبي موسى . عزمت عليك لما ضربت كاتبك موطأ .
(ج) ارتفع إلى زياد رجل وأخوه في ميراث ، فقال . « إن أبونا مات ، وإن أختنا وثب على مال أبانا فأكله » فقال زياد . « الذى أضعت من لسانك أضر عليك مما أضعت من مالك » وقال له القاضى . « فلا رحم الله أباك ، ولا نتج عظم أخيك ، قم فى لعنة الله .

(د) وقال أبو شيبة قاضى واسط . أتيتمونا بعد أن أردنا أن نقم (٣)
(هـ) روى أبو الحسن أن الحجاج كان يقرأ . « إنا من المجرمون منتقمون » ، على أن رؤية بن الحجاج وأبا عمرو بن العلاء قد زعما أنهما لم يريا قرويين أفصح من الحسن والحجاج .
(و) وغلط الحسن فى حرفين من القرآن الكريم هما . « ص والقرآن » ، وما تنزلت به الشياطين ،

(ز) وأول لحن سمع بالبادية . هذه عصاتى (١)

(ح) وقيل لأبي حنيفة . ماتقول فى رجل أخذ صخرة فضرب بهارأس رجل فقتله ، أتقيد به ؟ قال لا ولو ضرب رأسه بأبا قبيس (٢)
وقد احتج له ابن فارس بأنه جرى على لهجة عربية ، قال ياقوت . فهذا احتجاج إن كان أبو حنيفة قصد هذه اللغة الغربية الشاذة .

(ط) وقال بشر المريسي : قضى الله لكم الحوائج على أحسن الوجوه وأهنؤها .
(ي) قال بشر بن مروان - وعنده عمر بن عبد العزيز - لغلام له .
أدع لى صالحا ، فقال الغلام . يا صالحا ، فقال له بشر . ألقى منها ألف ، فقال له عمر . وأنت فرد فى ألفك ألفا .

(٢) البيان ٢ - ص ١٧٤

(١) البيان والتبيين ٢ - ص ١٧٥

(٣) البيان ٣ - ص ١٦٩

(ك) حكى عن الفراء مع جلالة قدره وعلو رتبته في النحو أنه دخل يوماً على الرشيد ، فتكلم بكلام لحن فيه ، فقال جعفر بن يحيى . يا أمير المؤمنين . إنه قد لحن ، فقال الرشيد للفراء . أتلحن يا يحيى ؟ فقال يا أمير المؤمنين . إن طباع أهل البدو الإعراب ، وطباع أهل الحضرة اللحن ، فإذا حفظت أو كتبت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطبع لحنتم ، فاستحسن الرشيد كلامه ، (١)

* * *

وكان لحنهم أنواعا ، فلحن في الإعراب كما سبق ، ولحن في بناء الكلمة كالذى قيل . إن نبطيا سئل . لم اشتريت هذه الأتان ؟ فقال . أركبها وتلد لى (بفتح لام تلد) ولحن في تركيب الجمل كالذى حكى الجاحظ قال . قلت لخدام لى . فى أى صناعة أسلم هذا الغلام ؟ قال . « أصحاب سئد نعال » ، يريد فى أصحاب النعال السندية (٢) .

* * *

وبعد فهذه أمثلة قليلة من كثير من اللحن الذى روى عن العرب وعلما النحو فى تلك العصور التى كانت فيها اللغة فصحة .

وليس بغريب أن يلحن النحاة ، لأن العلم باللغة ونحوها غير النطاق بها وعمارستها ، وكثيرا ما يجيد الرجل معرفة قواعد اللغة وضبطها وفهمها ثم لا يحسن أن يتكلم بها ، كالذى روى عن الفراء ، وعن الشلوبين فقد كان إماما فى النحو ولكنه لم يحسن الكلام ، لأن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل ، وليس هو نفس العمل ، ولذلك تجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة فى صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سئل كتابة سطرين إلى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامه أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الهوابع ، وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك ، والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العزبى ، ولذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملائكة ويجيد الفنين من المنظوم والمشور وهو لا يحسن إعراب الفاعل من

المفعول ، ولا المرفوع من المجرور ، ولا شيئا من قوآنين صناعة العربية ، (١) .
ولذا حرص الجاحظ على أن تروى نوادر الأعراب معربة ، ونوادر
العوام ملحونة ، على حالها ، ومتى سمعت بنادرة من كلام الأعراب فإياك
وأن تحكيها إلا مع إعرابها ، ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن في
إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية
وعليك فضل كبير ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة
من ملح الحشوة والطفام فإياك وأن تستعمل فيها الأعراب ، أو أن تتخير
لها لفظا حسنا ، أو أن تجعل لهما من فيك مخرجا سريا ، فإن ذلك يفسد الامتاع
بها ، ويخرجها من صورتها .

ثم يقول عن أهل المدينة . « واللحن في عوامهم فاش ، وعلى من لم ينظر
في النحو منهم غالب » ثم يستملح اللحن من الكواعب النواهد ، ومن الشواب
الملاح (٢) .

(٢) تعليم الأعراب بالسمع أولا

بعد أن تتحلل من النحو والأعراب لغة المحادثة ، يبقى موقوفا على لغة
العلم والأدب ، وعلى الخطابة بأنواعها . فكيف نعلمه ؟ وبم نيسره ؟ لعل
أوضح ما ينير الطريق أمامنا إلى اقتراحنا أن نقرر أن اللغات كلها إنما تتعلم
بالسمع ، ثم بالمزاولة .

فالطفل يسمع من أبويه ومخالطيه لغتهم فيحاكيهم فيها ، وينطق بما ينطقون
به تدريجيا ، وكذلك كان العربي يسمع كلام خلطائه فيلقنه مفردات أولا ،
ثم جملا ، ثم لا يزال سماعه يتجدد في كل وقت ، ومن كل متكلم ، ولا يزال
يتمرن على القول حتى تصير اللغة ملكة له ، أو صفة راسخة فيه .

تغير وسيلة إذن لتعليم اللغة السماع ، والاستعمال ، والمشافهة ، ولكننا قد
رأينا تعذر التزام الأعراب في لغة المشافهة ، فإذا نصنع لتيسيره في غيرها ؟

ماذا نصنع لتعويد الطالب أن يخاطب فلا يلحن ، ويطالع فلا يلحن ، ويكتب فلا يلحن ؟

خير وسيلة في نظري حفظ القرآن الكريم كله أو كثير منه ، وحفظ كثير من الحديث الشريف وكلام العرب ، واستيعاب ما يمكن استيعابه من الشعر والنثر قديمه وحديثه الآن . هذا كفيل بتقريب روح اللغة إلى الحافظ والقارئ والدارس .

ولهذا ملأ سيدويه كتابه بالشواهد ، ففيه ألف وخمسة بيت من الشعر سوى الأمثال والجل البليغة فيه جزء صالح من تعليم هذه المملكة ، فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب . . . وتنبه به لشأن المملكة فاستوفى تعليمها . فكان أبلغ في الافادة وأما المخاطون لكتب المتأخرين العاربية عن ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه المملكة . . . فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه ، وأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلوما أقرب الى تحصيل هذه المملكة وتعليمها من سواهم ، لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم . والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم . . . وأما من سواهم من أهل المغرب وإفريقيه وغيرهم فاجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثا ، وقطعوا النظر عن نقهه في تراكيب كلام العرب ، إلا إن أعربوا شاهدا ، أو رجحوا مذهبا من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه ، فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتميز أساليبه وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم فهو أحسن ما يفيد المملكة في اللسان ، (١)

ولقد كانت طريقة العرب في تعلم اللغة الفصحى هي المخالطة للفصحاء

ومعاشرتهم فقد قيل لبشار : « ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألقاظهم وشك فيه وإنه ليس في شعرك ما يشك فيه » قال : « ومن أين يأتيني الخطأ ولدت ها هنا ونشأت في جحور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ . وإن دخلت إلى نسائهم ففساؤهم أفصح منهم وأينعت فأبديت إلى أن أدركت فن أين يأتيني الخطأ ؟ (١) .

وقد تخرج في البادية أبو نواس والفرزدق ورؤبة وأبو الطيب وغيرهم كما كان بعض الخلفاء يعشون بأبنائهم إليها للتفصح واستقاء اللغة من ينابيعها . وقد فطن ابن خلدون إلى أن الطريقة المثلى لتعلم اللغة المرانة وكثرة الحفظ والقراءة ، لينطبع لسان المعلم وفكره على اللغة ، وقرر أن سكان الأمصار أشد إغراقاً في اللحن من سكان البوادي ، لأنهم لقنوا أول الأمر لغة ملحونة ، فاعوجت ألسنتهم ، وفسدت لغتهم ، فالتحو وحده لا يكفي . بل لابد من مخالطة الأعراب ، والتدرب على محادثتهم ، لأن اللغة ملسكة ، والملاسات لا تتكسب إلا بالتكرار والارتياض والمران ، فقد كان العربي يحاكي أهله في نطقهم وتعبيرهم كما يحاكي الطفل أهله في النطق في هذه الأيام بأية لغة .

وفي العصر الحديث تعلم البارودي اللغة العربية وأجادها فهما ، وأجاد الشعر نظماً ، ولم يتعلم نحواً ، وذلك بكثرة قراءته وحفظه ، كما يقرر ذلك الشيخ حسين المرصفي في كتابه (الوسيلة الأدبية) .

ولهذا رأى (فترينو) زعيم التربية الأدبية في إيطاليا أن أنجح وسيلة لتعليم اللغة اللاتينية للأطفال أن يجعلها لغة المحادثة منذ الصغر ، يتفاهمون بها ، ويتحدثون مع أستاذهم ، على أنه عنى بتجويد نطقهم ، وجودة إلقائهم ، وتمثيلهم للبعاني .

(٣) لغة الحياة

ثم تستنبط القواعد النحوية من قطع إنشائية شائعة من عمل المدرس متصلة بحياة التلاميذ وبيئتهم وملائمة لميولهم وعقليتهم، ويحسن أن تكون متمشية مع ما يشغلهم ويسترعى انتباههم من حوادث المدرسة أو حوادث الخارج كإبارة في الكرة أو رحلة مدرسية أو ذكرى الجهاد، أو رأس السنة الخ . .

وقد مارست هذا في تدريس الصرف للسنة الثانية الثانوية حتى في أكثر الموضوعات جفاقا كالمصدر، وأسم الزمان، والمكان، والتصغير، وإسم المفعول، فكنت أكتب لهم على السبورة قطعة حية شائعة يكثر فيها اسم المفعول مثلا بصورتيه، وأحوال عمله، ثم أستنبط منهم القاعدة .
والحق أنى وجدت في ذلك تيسيرا عليهم، وتشويقا لهم، ووجدت أن القطعة المترابطة الشائعة كفيلة بسرعة الفهم، ومرغبة في القواعد، لأن التلاميذ لا يحسون آتئذ أن القواعد جافة، ولا أنها منبته عن الحياة .

(٤) الاقتصار على المهم

على أن تقتصر في التعليم الابتدائي والثانوي على المهم الضروري من القواعد، فما حاجة الطلبة إلى توكيد الفعل المسند إلى ألف الاثنين وأو الجماعة وياه المخاطبة ونون النسوة؟ وما حاجتهم إلى التوسع في النسب والتصغير؟ ثم ما لهم وتوكيد الضمير البارز والمستتر بالنفس والعين؟ وما الداعي لتعليمهم قواعد مصادر الثلاثى وهى تقريبية لاقياسية؟ ولم نعلمهم النكرة غير المقصودة في النداء؟ وكذا أحوال اسم لا؟ وانهم لمعدورون في اضطرابهم بين المفرد والجملة، فالمفرد تارة ما ليس مثنى ولا جمعا، وتارة ما ليس جملة ولا شبه جملة .

فمن الصالح حذف هذه الأبواب والمصطلحات .

ومن الصالح حذف الإعراب التقديرى والمحلى من المدرسة الابتدائية، والاكتفاء فيها بألقاب البناء لتدل على البناء وعلى الإعراب معا . كما تحذف

موضوعات يمكن الاستغناء عنها إما لأنها لا تدخل لها في ضبط أو آخر الكلمات كالإعلال والإبدال وقواعدهما وشروط عمل اسم الفاعل والمفعول والتفضيل، وإما لأنها قليلة الاستعمال كتصغير غير الثلاثي، والاستغاظة التبدية والاستغال، وإما لأنها يصح فيها وجهان كالعطف على الضمير المستتر بعد فصل أو بغير فصل .

ثم تحذف أحوال بناء الماضي والأمر، فإن نطقهما في جميع أحوالهما غير محتاج إلى قاعدة تبين أحوال البناء كما لا ننص على إعراب الحروف .

(٥) التطبيق، والشفهي خاصة

بعد هذا الاختصار، والاقتصار، وبعد استنباط القواعد من نماذج وثيقة الصلة بالحياة لا بد من التطبيق، وليكن أكثره شفهيًا .

وإذا كان بعضه تكوينيًا فليحذر المدرس القيود المملة الدوارة، بل ليهدف إلى الغرض في طريق مستقيم .

وحيث أن يحرص المدرسون جميعًا على التدريس بلغة صحيحة، فبقي حرصهم هذا تغذية للتلاميذ وتقوية، ثم يحسن المدرسون صنعًا إذا شجعوا التلاميذ على توخي اللغة الصحيحة في إجاباتهم الشفهية ومحاوراتهم وأسئلتهم، ليكتبوا بعد ذلك كتابة سليمة، وليسهل عليهم القول في مجال القول .

(٦) الشكل

ثم لا بد من شكل كل كتاب يقرؤه التلاميذ، سواء أكان شكلًا كاملًا أم شكلًا لغير الحروف المفتوحة، لأن الفتحة أكثر من نصف الحركات والسكون معًا، ويعتبر تركها اصطلاحًا بدل عليها .

وقد دلت التجارب على أن التلاميذ حتى في المدرسة الابتدائية يقرءون قراءة صحيحة ما كان مشكولًا؛ وإنما يقع منهم اللحن أحيانًا لبعث الشكل عن الحرف، أو اختلاطه بغيره، أو لقلة الانتباه .

والشكل مشكلة قد كثر فيها البحث، وكثرت الاقتراحات، ولعل أولها بالتجربة والقبول إدخال حروف في رسم الكلمات نفسها بصورتها العربية،

ومادام لم يجرب اقتراح ما فلنثبت على الشكل المعروف حتى تثبت صلاحية غيره.

(٧) وسائل الثقافة

وبما يساعد على نشر اللغة الصحيحة الخطب في المدرسة وخارجها ، والأغاني ، والإذاعة ، والمسرح ، والحياة ، والإعلانات ، والصحف ، والمجلات ، والمناظرات الخ . فلو توخت هذه كلها اللغة الصحيحة لأسهمت في تعليم الشبان لغتهم القومية ، وسهلتها عليهم .

(٨) الكتاب الملائم

ثم لا يليق بنا أن تكون مكتباتنا فقيرة إلى هذا الحد من الكتب التي تؤم روح الأطفال والشباب ، وترضى حاجتهم ، وتغذى خيالهم ، فليؤلف الكتاب والمدرسون في العالم العزى كتباً تجتذب التلاميذ إلى قراءتها ، فتثقفهم من ناحية ، وتعلمهم من ناحية ثانية ، فيتقنوها ، ويحسنوا التصرف فيها ، ويهجروا المجلات الماجنة والقصص المفسدة . ولقد يساعد الكتاب على ذلك دراستهم للطفولة في مصر والعالم العربي ، وهذه ناحية مفقودة الآن تقريباً ، على حين قد حفلت مكتبات الأمم الراقية بالدراسات والبحوث في نفسية الأطفال ، وخصائصهم قبل سن الروضة ، وفي المدرسة الابتدائية ، وعن الفتى والفتاة ، وعن منطق الأطفال وتفكيرهم وخيالهم الخ .

ثم يساعدهم دراسة المظاهر اللغوية عند الأطفال ، وطرائق النمو في قاموسهم . ونوع الموضوعات والأساليب التي تناسب عقولهم وأخيلتهم وتصوراتهم في كل مرحلة كما حدث في الغرب بطريقة القائمة المدونة ، أو بطريقة النماذج على غرار طريقة جيرز الـأمريكي ، وكأبحاث العلامة بياجيه ، وهازلت ، وما كارتى ، وإيزاكس ، وإدجل ، وسرل برت الخ ، (١) .

(١) الطفل من المهد إلى اللحد .

هوكب الربيع ...

للشاعر محمد هارون الحارثي

يانسمة في فؤادي رفها أمل
أرى الأزاهير أعطافا موقفة
إذا ترائى على عيني بارقه
عصا الربيع عصا سحرية نبعت
جم الصباية في الاغصان منفرد
قد هاجه من ربيع الشوق مستبق
يهم بالحسن والاحداق باسمية
تري خيال المنى يغشى مباحجه
كم أورقت حوله أمنية وهفت
فتلك موشية رفت قلبي فن
وقد أحاط بعطفها سمير هوى
ماللرياحين في وادي الظلال جمى
غدا الربيع ، فلبي نحوه فتى
لكم وردنا به حوض الهوى وحلا
به مناسك غزلاني ومدرجتي
كانت ظباني به تغدو مدحة
وكم يمين عقدنا فيه أن لنا
أمضى فتمى حياي خبر نائمة
يحتاجه نحوها جذب أبعاده
سيال روحي وكهراب الهوى وسرى
تلك التي طالما بادلتها عبقا

غدا الربيع ، فريان الهوى نمل
يشف عنها خيال للبنى جذل
فتمى فؤادي رفيف منه متصل
بها الافاويق فاهتاج الربى غزل
كأنه راهب في الله معتنزل
إلى التناجي وأفياء الهوى ظلل
وقد أطل عليه الزنبق الخضل
ويعطف الروح في فردوسه الأمل
به الذوائب والأرداف والمفل
من الهوى قد زهاها السحر النجل
له بأفواها عن غيرها شغل
فكل غاد عليها شارب نسل
لم يستبق لمريني فيه منتقل
للقلب والروح من فردوسه نهل
مذبات للبحسن فيه يضرب المثل
تسعى على حذر والليل منسدل
من الوفاء وصدق الود متصل
أحلام قلبي وقلبي شيق جذل
عنها برقني وسكان وكيف يفصل
نفسى وخطرة ماني الفسك والوهل
راح الهوى وشجهاها الشعر والفزل

يا طيب الله أنفاساً معطرة
تاريخ عشق قصصناه ولد لنا
آذار كفك بالانداء عاطرة
تهفو علينا بك الاحلام ريقة
روى الفؤاد وراق النبع وانتلقت
فالسحر مياسة الأعطاف تنطقه
لها معاطف سوسان قد ازدهرت
ترف بين الروابي وهي حالية
وكل ثغر به للحسن شاردة
وفي الغدير خيال باسم ورؤى
در فيض وجهه النير كما
ويطيبك بعرش الشمس راقصة
ياورد كم ذا تشوق المدنفين إذا
أنت الرسول إلى الاحباب تألفهم
هو الربيع حذاء العاشقين إذا
ضفافه لهوات العيش ناضرة

كأنت تروح عن نفسي بها القبل
وسوف يرويه حاد بعدنا زجل
والبشر والصفومذ وافيت مكتمل
والعيشه أسبابه موصولة ذل
بك المجالى وطابت بينك النزول
بعقرى الممانى وهو منقل
والنصن مخضوضر والقند معتدل
والدر والتبر في أعطافها حل
من الامانى تناغيه وتحتفل
يشف عنها السنن والبارق الهطل
يفيض بالخير والاحسان من يصل
من الشعاعات والاطلال تنتقل
مروا عليك وهم غاد ومرتجل
ويألفونك إما كذب الرسل
هبّت رياح الضنى أو غامت السبل
يقوى المحبون فيها أينما نزلوا

محمد هارون الحلوى

الفهرس

الموضوع	الصفحة
للأستاذ السباعى بيومى وكيل كلية دار العلوم	٣ - ٤٥ النقد فى الأدب العربى
للأستاذ عبد الغزىز مزروع الأزهرى المدرس بالمدارس الثانوىة	٤٦ - ٥١ بنو تميم فى سماء العربوىة
للأستاذ أحمد أحمد بدوى المدرس بكلوىة دار العلوم	٥٢ - ٦٢ أبوىوسف وكتاب الخراج
للأستاذ أحمد محمد الحوفى المدرس بكلوىة دار العلوم	٦٣ - ٧٦ النحو بين الالقاء والابقاء
للأستاذ محمد هارون الحلوى	٧٧ - ٧٨ موكب الربىع
	٧٩ - الفهرس